الفرقان بين الحق والباطل

للامام

شيخ الاسلام ابن تيمية

بتعليق الأستاذ

محمد ابو الوفا عيد

من علماء الازهر

الناشر

زكريا علي يوسف

مطبعة العاصمة — شارع الفلكي بالقاهرة

ترجمة المؤلف

تعريف بنسبه ونشأته

هو العالم العلامة الحبر الفهامة ، الحافظ ، الثبت ، الحجة ، الفقيه ، المحدث ، المفسر ، المفتى ، اللغوى ، الفيلسوف ، التقى ، الورع ، الزاهد ، المجاهد ، القدوة ، شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية الحرانى .

ولد بحران قرية من قرى الشام يوم الاثنين لعشرة خلت من ربيع الأول سنة ٦٦١ إحدى وستين وستمائة من الهجرة .

ونبت فى أسرة ثابتة الدعائم قوية الأركان ، كدوحة سامقة وارفة الظلال أو كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . ينطبق عليه وعلى أسرته قول الشاعر :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتغرس إلا فى منابتها النخل

فهو سليل أسرة كريمة اشتغل أبناؤها بالعلم وكلهم عرف به وبرز فيه ، لذا خلد التاريخ أسماؤهم والكثير من آثارهم ، فأبوه وجده من أساطين العلم وسادة الفقهاء المحدثين المفسرين .

فأنبته الله نباتا حسنا ، وعاش ببلدته تلك بضع سنين فى كنف أبيه وتحت رعايته ثم انتقلوا إلى دمشق سنة ٦٦٧ سبع وستين وستمائة عند قدوم التتار إلى الشام وكاد هذا البلاء الزاحف أن يدركهم فى سيرهم لولا أن الله تعالى أراد للاسلام والمسلمين الخير كل الخير فمن عليهم بالسلامة .

وفى دمشق إحدى قلاع العلم ومنارات المعرفة نشأ ابن تيمية وترعرع ثم درس ونضج حتى بلغ أشده وآتاه العلم والحكمة وعلمه مما يشاء ، حتى صار أحد الأئمة الأعلام .

ولا غرو فقد حباه الله من فضله ظروفا لم تتح لغيره منها وراثة عميقة الجذور بعيدة الأصول سامقة الفروع . وبيئة علمية أوفت على الغاية وأربت على النهاية وبلغت حد العجب والاعجاب .

استقرت الاسرة بدمشق الفيحاء فحفظ فيها القرآن ثم درس وطلب العلم وعاش متبتلا له طول حياته حتى بلغ الغاية وبز معاصريه ، كل هذا تحرسه عفة ومروءة وأخلاق فاضلة وقول للحق وقوة فيه ، فلا يخاف فى الله لومة لائم .

﴿ منزلته العلمية ﴾

وكان رحمه الله عظيما فى ذات نفسه عالما ذكيا ألمعيا كاتبا عبقريا خطيبا بارعا باحثا منقبا مجتهدا مجددا شجاعا مجاهدا ، بالسيف والسنان كما حارب بالقلم والبيان أتى بجديد لم يكن فى شيوخه من يعرفه حيث درس الفقه دراسة مقارنة واضحة متعرفا أسراره وغاياته ، وكان على إلمام بأصول المذاهب الإسلامية المعروفة ونراه دارسا فاحصا ، ثم نرى له تأملات فلسفية عميقة استخرج بها فلسفة الشريعة سائغة سهلة القبول .

تدل مآثره العلمية على أنه قرأ كل الثمرات العقلية والفلسفية والدينية واللغوية التى زخر بها عصره ؛ قرأ كتب الفلاسفة والرد عليها وكتب الغزالى وابن رشد وغيرهما وكتب المذاهب الفقهية والكلامية وكتب العربية بل مصادرها ، وهو المنظوم والمنثور من كلام العرب حتى خطأ إمام اللغة سيبويه فى بعض المسائل . وقرأ الأحاديث رواية ودراية حتى ما علم أن أحدا وصل إلى محفوظه منها ، حتى قيل (إذا وجد حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث) .

ثم صهر كل تلك القراءات فى بوتقته الربانية التى حباه الله بها فأخرج عنصرا حيا قويا أمد به جيله والأجيال من بعده إلى اليوم وإلى ما شاء الله .

وأعجب من ذلك كله أنه لم يكتف بالدراسة الاسلامية بل درس غيرها ،

ولعل أظهر ما يدل على ذلك كتابه « القول الصحيح فيمن بدل دين المسيح » إذ يكشف هذا الكتاب عن كاتب ملم إلماما تاما بالديانة المسيحية فى أصلها عارفا بما راج فى عصره من تحريف وتبديل من أدعيائها .

قال عنه كمال الدين الزملكانى كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحدا لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا إليه استفادوا فى مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم فى علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنتسبين إليه ، وقد يجيب عن المسألة الواحدة بمجلد كبير لا يخرج فيه عن الموضوع ويأتى بما لا يخطر بالبال والخاطر .

وقل أن يدخل فى علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرك مستدركات فى ذلك العلم على حذاق أهله مستعينا بالله على فهم ما استعصى ، يقول عنه بعض معاصريه . « لقد سمعته فى مبادئ أمره يقول إنه ليقف خاطرى فى المسألة والشيء أو الحالة التى تشكل على فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل الإشكال .

ولم يبرح شيخ الاسلام على هذه الحال من التزيد من العلوم والمعارف وبث العلم ونشره والاجتهاد فى سبيل الخير حتى انتهت إليه الامامة فى العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تتلمذ لأكثر من مائتى شيخ ولكنه فاقهم ولا غرو فقد يفوق التلميذ أستاذه والولد أباه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

﴿ جهاده ﴾

إذا كان ما سبق بعض ماكان عليه شيخنا من الناحية العلمية فما أخبار جهاده فى سبيل الله ؟ نعم : لقد كان جهاده على نوعين جهاد بالسيف والسنان

وجهاد بالقلم واللسان ، أما جهاده الأول فقد حمل السلاح وخاض معامع المعركة مع التتار وكان لهذا أكبر الأثر فى نفوس الناس فحملوا على عدوهم صادقين بعـــد أن كادوا أن يستسلموا تخاذلا وجبنا حتى كتب لهم النصر المؤزر .

وأما جهاده بلسانه وقلمه يتجلى فى استنهاض همم المصريين فى أن يشاركوا فى المعركة ، وظل مع السلطان بالحجة والبرهان حتى أقنعه بالخروج وبشره بالنصر المؤزر ، وفعلا حقق الله آماله فارتد التتار مدحورين أمام جحافل جيش الاسلام .

ولم يقتصر جهاده على حرب الأعداء بل كان حربا شعواء على أرباب البدع من المتصوفة وعلى الجامدين من أهل الفقه والحديث والزائغين الملحدين من أرباب النحل والأهواء فى العقيدة ، وكان الحق معه فى كل خطوة خطاها حيث جعل القرآن والسنة نصب عينيه لا يحيد عنهما إلى قول قائل .

وقديما قال أمير المؤمنين : « ما أبقى الحق صديقا لعمر » هذه الكلمة تصور لنا إلى مدى كبير ما نحن بصدده فالرجل العظيم بما جبل عليه من الصراحة والقوة فى الحق يكثر أعداؤه والحاقدون عليه لأنه لا يخادع ولا يوارب ، فكاد له أعداؤه وقعدوا له بكل صراط يوعدون وشوا به إلى السلاطين والحكام فدعى إلى مصر وحوكم بها وسجن ثم عفى عنه بعد زمن طويل ثم حوكم ثانية وسجن بالاسكندرية وضرب وأوذى فى الله كثيراً .

وكانت نهاية المطاف هناك فى سجن القلعة بدمشق على إثر فتواه المتمشية مع الحديث الشريف « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوى بالمدينة والمسجد الأقصى بالقـــدس » ، وعلى هذا فلا يجوز شد الرحال لقبور الأنبياء ولا الصالحين » .

فدخل السجن ومكث به ما يربو على السنتين بشهور ، وكان فى أول

الأمر يكتب لأحبابه ويؤلف ويراسل ثم ضيق عليه الخناق أخيراً فمنع القلم والقرطاس ، فكتب بالفم بعض رسائل إلى تلامذته ، ولكن اعتلت صحته ومكث مريضا دون علم أحد حتى اختاره الله لجواره ليلة الاثنين لعشرين خلت من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من الهجرة ، فشيع بالدموع السخينة والقلوب الحزينة وصلى عليه أعداد لا حصر لها حرزها بعضهم فقال صلى عليه خمسمائة ألف رجل وخمس عشرة ألف امرأة .

مات رحمه الله وكان آخر شيء قرأه من القرآن « إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » مات رحمه الله وترك تراثا علمياً كبيراً من الكتب العلمية المحققة التى لا زال العلماء إلى اليوم عيالا عليها ، ولم يمكن إحصاء هذه الرسائل والكتب إلى الآن ، ولا زال العلماء يعثرون على بعض رسائله فى خزائن الكتب فى شتى البلاد ؛ ومن كتبه الكبيرة كتاب الفتاوى ومنهاج السنة النبوية واقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم وغيرها وغيرها من الرسائل التى تصدر غالبا إجابة عن أسئلة ترد إليه .

قدس الله روحه ونور ضريحه ونفعنا بعلمه آمين .

أبو الوفا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله وهو مما صنفه بقلعة دمشق أخيراً .

﴿ فصل فى الفرقان بين الحق والباطل ﴾ وأن الله بين ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذى أنزله ، ونبيه الذى أرسله كان أعظم فرقاناً ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق . فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والرشاد والغى والصدق والكذب والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء ، وأعداء الله الأشقياء ، وبين ما عليه الناس من الاختلاف

وكذلك النبيون قبله قال الله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ٢١٣ البقرة وقال تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

٦٣ النحل وقال سبحانه وتعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) أول الفرقان وقال تعالى (الم ٓ الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) أول آل عمران

قال جماهير المفسرين هو القرآن ، روى ابن أبى حاتم بإسناده عن الربيع ابن أنس قال هو الفرقان فرق بين الحق والباطل ، قال وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك ؛ وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة فى قوله وأنزل الفرقان قال هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ففرق به بين الحق والباطل وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحد حدوده وأمر بطاعته ونهى عن معصيته ، وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى وأنزل الفرقان قال هو كتاب بحق .

والفرقان مصدر فرق فرقاناً مثل الرجحان والكفران والخسران وكذلك القرآن هو فى الأصل مصدر قرأ قرآنا ومنه قوله (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) ١٧ القيامة ويسمى الكلام المقروء نفسه قرآنا وهو كثير كما فى قوله (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) ٩٨ النحل كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليما وتكلم تكلما ويراد به الكلام نفسه وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هى مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفا هو نفس التكلم ، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعا من العمل إذا أريد به المصدر . وتارة يجعل قسيما له إذا أريد ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل فى الكتاب فإن فى الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً فهما فى المعنى سواء ، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله

كإنزال الإيمان وإنزال العدل فإنه جعل فى القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن كما جعل فيها الإيمان والعدل وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل وهو كالفرقان يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق وهما متلازمان .

فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى . سمى كتابا باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمى فرقانا باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمى هدى باعتبار أنه يهدى إلى الحق ، وشفاء (١) باعتبار أنه يشفى القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء الرسول كالمقتفى والماحى والحاشر ، وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ، ونحو ذلك والعطف يكون لتغاير (٢) الأسماء والصفات وإن كان المسمى واحداً كقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) أول الأعلى وقوله (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ٣ الحديد ونحو ذلك . وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فإنه نزله متفرقاً وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر أنه أنزل الفرقان وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان فى القلوب وأنزل الميزان ، والايمان والميزان مما يحصل

---

(١) قال تعالى « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ٥٧ المائدة

(٢) يقول اللغويون إن العطف يقتضى المغايرة فإذا عطفت شيئاً على شيء اقتضى ذلك أن يكون المعطوف غير المعطوف عليه .

ويريد الشيخ هنا أن يدلنا على أن تغاير الصفات يقوم مقام تغاير الأسماء فالصفات قد تغايرت وان كان المسمى واحدا فالله : الأعلى ، الخالق ، المسوى المقدر ، الهادى ، لذا جاز العطف .

به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن وإذا أنزل القرآن حصل به الايمان والفرقان ونظير هذا قوله (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا) ٤٨ الأنبياء قيل الفرقان هو التوراة وقيل هو الحكم بنصره على فرعون كما فى قوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) ٤١ الأنفال

وكذلك قوله (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) ١٥ المائدة قيل النور هو محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هو الاسلام وقوله (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا) ١٧٤ النساء قيل البرهان هو محمد وقيل هو الحجة والدليل وقيل القرآن والحجة ، والدليل يتناول الآيات التى بعث بها محمد ﷺ ، لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم ، وهنا قال وأنزل الفرقان ، جاء بلفظ الانزال ، فلهذا شاع بينهم أن القرآن والفرقان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجى هؤلاء وينصرهم ، ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالاحسان إلى هؤلاء ، وعقوبة هؤلاء .

وهذا كقوله فى القرآن فى قوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) قال الوالبى عن ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل . قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد ومقسم وعبد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وبذلك فسر أكثرهم إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا كما فى قوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) ٢ الطلاق أى من كل ما ضاق على الناس ، قال الوالبى عن ابن عباس فى قوله إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا أى مخرجا ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى ومقاتل ابن حيان كذلك غير أن مجاهداً قال مخرجا فى الدنيا والآخرة ، وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً ؛ قال وفى آخر قول ابن عباس والسدى نجاة .

وعن عروة بن الزبير يجعل لكم فرقانا أى فصلا بين الحق والباطل يظهر

الله به حقكم ويطفىء به باطل من خالفكم ، وذكر البغوى عن مقاتل بن حيان قال مخرجا فى الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيرا لمراد مقاتل ابن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتيبة أنهم قالوا هو المخرج ، ثم قال والمعنى يجعل لكم مخرجا فى الدنيا من الضلال ، وليس مرادهم وإنما مرادهم المخرج المذكور فى قوله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ والفرقان المذكور فى قوله ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال : هدى فى قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل .

ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان وهو النصر والنجاة هو نوعا الظهور فى قوله تعالى ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ ٩ الصف يظهره بالبيان والحجة والبرهان ويظهر باليد والعز والسنان وكذلك السلطان فى قوله ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً ﴾ ٨٠ الاسرا فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما فى قوله ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ ٣٥ الروم وقوله ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ﴾ ٥٦ غافر وقوله ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ٢٣ النجم ، وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد وفسر بالحجة والبيان .

فمن الفرقان ما نعته الله به فى قوله ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم ﴾ ١٥٦ الأعراف ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث أحل هذا وحرم هذا .

ومن الفرقان أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل

الحسنات ، وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيآت قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ٢١ الجاثية وقال تعالى ﴿ ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ٢٨ ص وقال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ ٣٥ ن وقال تعالى ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ﴾ ٢٤ هود وقال تعالى ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ٩ الزمر وقال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ ١٩ فاطر وقال تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ١٢٢ الأنعام وقال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ ١٨ السجدة فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول ، والمعصية لله والرسول كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق فى شىء فيجعل المخلوق نداً للخالق قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ١٦٥ البقرة وقال تعالى ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ ٦٥ مريم وقال تعالى ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ٤ الاخلاص ليس كمثله شىء .

وضرب الامثال فى القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم فى النار يصطرخون فيها ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسو يكم برب العالمين ﴾ ٩٧ الشعراء وقال تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن

لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ ١٧ النحل .

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحى الذى لا يموت ومن سواه لا يخلق شيئاً كما قال . ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ﴾ ٧٣ الحج .

وهذا مثل ضربه الله فإن الذباب من أصغر الموجودات وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز .

والمثل هو الأصل والنظير المشبه به كما قال : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾ ٥٧ الزخرف أى لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا فضربوه مثلا لآلهتهم وجعلوا يصدون أى يضجون ويعجبون منه احتجاجا به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه فى قوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ١٠١ الأنبياء . وقال فى فرعون ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين ﴾ ٥٦ الزخرف . أى مثلا يعتبر به ويقاس عليه غيره فمن عمل بمثل عمله جوزى بجزائه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله ، وقال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ﴾ ٣٤ النور . وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التى يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة كما قال ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ١١١ يوسف فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده فى الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والآخرة . كما قال فى حق هؤلاء ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة

فى الزبر ﴾ ٤٣ القمر ، وقد قال ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ١٢٧ آل عمران وقال فى حق المؤمنين ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ ٥٥ النور ، وقال ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ ٨٧ الأنبياء ، وقال فى قصة أيوب ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ ﴿ رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ وقال ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وقال ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ ٢١٤ البقرة ، وقال ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ ١٢٠ هود .

فلفظ المثل يراد به النظير الذى يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس ، قال سبحانه ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ ٧٨ يس .

أى لا أحد يحييها وهى رميم * فمثل الخالق بالمخلوق فى هذا الى فى جعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحيائها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ، وبين أن معنى القياسين قياس بالشمول . وقياس بالتمثيل وأن المثل المضروب المذكور فى القرآن ، فإذا قلت النبيذ مسكر وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله ﷺ كل مسكر حرام فهو كقوله ﷺ قياساً على الخمر لأن الخمر إنما حرمت لأجل الاسكار ، وهو موجود فى النبيذ .

فقوله ضرب مثل فاستمعوا له جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلا ونظيراً يعتبر به ، فإذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعته فلا يقدرون على خلق ما سواه فيعلم بها من عظمة الخالق وأن كل ما يعبدون

من دون الله فى السماء والارض لا يقدرون على ماهو أصغر مخلوقاته ، وقد قيل انهم جعلوا آلهتهم مثلا لله فاستمعوا لذكرها ، وهذا لانهم لم يفقهوا المثل الذى ضربه الله جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل

ومثل هذا فى القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ويجعل له ندا ومثلا كقوله (قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى الا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم الاظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيأ ان الله عليم بما يفعلون) ٣١ يونس

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك فقال , وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق وهذا من تكذيبهم اياه ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله فى كل شىء بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم وهم مخلوقون مملوكون له ولكن كانوا يسوون بينه وبينها فى المحبة والتعظيم والدعاء والعبادة والنذر لها ونحو ذلك مما يخص به الرب فمن عدل بالله غيره فى شىء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفا من عقوبة الذنب فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك

(فصل) وهو سبحانه وتعالى كما فرق بين الامور المختلفة فانه يجمع ويسوى بين الامور المتماثلة فيحكم فى الشىء خلقا وأمرا بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين

ولا يسوى بين شيئين غير متماثلين ، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما

ولفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) ٨٢ النساء وقوله (إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك) ٨ الذاريات وقوله (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) ٢٥٣ البقرة .

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير موضع ، والسنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثانى مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب)

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان . فإذا قال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب فى أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الأنبياء قال تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) وقال تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب وظهور الإسلام وذل المنافقين فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها ، فأخفوا النفاق وكتموه فلهذا لم يقتلهم النبى ﷺ

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

قال قتادة ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما فى أنفسهم من النفاق فأوعدهم الله بهذه الآية ، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) يقول هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق ، قال مقاتل ابن حيان قوله سنة الله فى الذين خلوا من قبل يعنى كما قتل أهل بدر وأسروا فذلك قوله (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) .

قال السدى كان النفاق على ثلاثة أوجه نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبى وعبد الله بن نفيل ومالك بن داعس ، فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم ، والذين فى قلوبهم مرض قال الزناة إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه ، ونفاق يكابرون النساء مكابرة وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق ثم قال ملعونين ثم فصلت الآية أينما ثقفوا يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدى هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به ، ولو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم .

قال السدى قوله (سنة) كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم قال فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت هذا على وجهين (أحدهما) أن يقتل دفعاً لصوله عنها مثل أن يقهرها فهذا دخل فى قوله (من قتل دون حرمته فهو شهيد) وهذه لها أن تدفعه بالقتل لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل وفيه قضيتان عن عمر وعلى معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرهاً ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان أحدهما أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا ، قال السدى قد قاله غيره ، وذكر أبو اللوبى أن هذه جرت عنده

ورأى أن هؤلاء أحق أن يكونوا محاربين (والثانى) أن لا يكونوا ذوى شوكة بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالا حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها فهذا المحارب غيلة كما قال السدى يقتل أيضاً وإن كانوا جماعة فى المصر . فهم كالمحاربين فى المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشىء وبين نظيره الماضى ، وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ولهذا قال (أكفاركم خير من أولئكم) وقال (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ٢٢ الصافات أى أشباههم ونظراءهم وقال (وإذا النفوس زوجت) ٧ التكوير قرن النظير بنظيره وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) وقال (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) وقال (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وقال تعالى (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم) وقال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء ؛ فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد كما ثبت فى الصحاح من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (١) ولهذا كان معرفة أقوالهم فى العلم والدين وأعمالهم

(١) من هذه الوجوه ما رواه البخارى قال : « عن عمران بن حصين =

خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم فى جمع علوم الدين وأعماله كالتفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ، فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم فى العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوما ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق فى بعض أقاويلهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه قال تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ٥٩ النساء

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم ، بل هم فى كثير مما يتكلمون به فى العلم ويعملون به ولا يعرفون طريق الصحابة والتابعين فى ذلك من أهل الكلام والرأى والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عمدتهم فى كثير من الأمور المهمة فى الدين إنما هو عما يظنونه من الاجماع وهم لا يعرفون فى ذلك أقوال السلف البتة أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحكون الاجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أو طائفتين أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير فى مسائل أصول الدين وفروعه كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك يحكون اجماعا ونزاعا ولا يعرفون ما قال السلف فى ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجا عن أقوالهم كما تجد ذلك فى مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته مثل مسئلة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك .

= رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ؟ قال عمران — فما أدرى قال النبى ﷺ مرتين أو ثلاثا . قال النبى ﷺ ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن »

وهم إذا ذكروا اجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الاجماع ، فإنه لو امكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم فى مسائل النزاع بخلاف السلف ، فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التى يكون كل قول من تلك الأقوال سائغا لم يخالف إجماعا لأن كثيرا من أصول المتأخرين محدث مبتدع فى الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن (١)

---

(١) الخوارج : جماعة من جند على أكثرهم من بنى تميم يرون أن التحكيم الذى لجأ إليه جيش معاوية وقبله على ، خطأ وطلبوا من على أن يقر على نفسه بأن التحكيم خطأ ، بل أكثر من هذا طلبوا منه أن يقر بالكفر ثم يتوب وهذا شرط لعودتهم معه فى القتال فأبى على ذلك عليهم فخرجوا إلى قرية قرب الكوفة تسمى (حروراء) ليستعدوا لقتال على فعرفوا بالحرورية كما سموا أنفسهم بالشراة أى الذين باعوا أنفسهم لله

من مبادئهم . كفر من عدا الخوارج من المسلمين . مرتكب الكبيرة كافر

الرافضة هم فرقة من الشيعة الأمامية والسبب فى تسميتهم بالرافضة أنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين فى خلافة هشام بعد سنة عشرين ومائة من الهجرة وزيد كان من أفاضل أهل البيت وأعلمهم سألوه عن أبى بكر وعمر فترضى عنهما فرفضوه فقال رفضتمونى رفضتمونى فسموا بالرافضة وقيل سموا رافضة لرفضهم خلافة أبى بكر وعمر وعثمان .

وهم زنادقة ملحدون . يقولون إن الله جسم ذو هيئة وصورة يتحرك ويسكن وينزل وينتقل .

القدرية : هم منكروا قدر الله تعالى والقدر علم الله بالأشياء ومقاديرها وأزمانها قبل وقوعها وإيجادها على ما سبق فى علمه تعالى والقدرية =

قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيهـــا النصوص المستفيضة المعلومة واجماع الصحابة بخلاف ما يعرف من نزاع السلف ، فإنه لا يمكن أن يقال أنه خلاف الاجماع وإنما يرد بالنص ، وإذا قيل قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع فمثل هذا مبنى على مقدمتين احداهما العلم بأنه لم يبق فى الأمة من يقول بقول الآخر ، وهذا متعذر . الثانى أن مثل هذا هل يرفع النزاع مشهور فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة د على خلافه ونزاع المتأخرين لا يمكن هذا لأن كثيراً منه قد تقدم الاجماع على خلافه كمادلت النصوص على خلافه ومخالفة اجماع السلف خطأ قطعا .

= منهم من ينكر سبق علم الله بالأشياء قبل وقوعها ويقولون الأمر أنف بمعنى أن الله يأتنف الأشياء علما حين وقوعها يبتدىء علمها ومنهم من يقول أنه تعالى لم يعلم بالأفعال أزلا ثم يزعمون أن أفعال العباد مقدرة لهم وصادرة منهم على جهة استقلالهم .

المرجئة : هى الطائفة التى أرجأت أمر المختلفين إلى الله فإنهم رأوا الخوارج يكفرون عليا وعثمان وبعض الشيعة يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، والأمويين يقاتلون الفريقين فظهرت المرجئة تسالم الجميع وتقف منهم موقف الحياد فلا تكفر أحدا بل تقول إن الطوائف الثلاث السابقة مؤمنون وبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب دون تعيين وانكل أمرهم إلى الله .

ومن هؤلاء سعد بن أبى وقاص وأبو بكرة وعبدالله بن عمر ان بن حصين ولكن خلف هؤلاء جماعة لم يقفوا من غيرهم هذا الموقف فمن مبادئهم الايمان معرفة بالله وبرسوله فقط وغلا بعضهم فقال الإيمان هو الاعتقاد بالقلب فقط وإن حصل ما ينافيه من قول أو فعل فغير ضار إذ لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ثم صادف هذا المذهب هوى فى نفوس المفسدين الغاوين فاتخذوه ذريعة لمفاسدهم وآثامهم لذا قال زيد بن على بن الحسين « أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله » .

وأيضاً فلم يبق مسئلة فى الدين الا وقد تكلم فيها السلف فلابد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه ، وقد بسطنا فى غير هذا الموضع أن الصواب فى أقوالهم أكثر وأحسن وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا فى جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم .

(فصل) ومما ينبغى أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى أقوال أهل اللغة فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الاسماء ثلاثة أنواع نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ؛ ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله (وعاشروهن بالمعروف) .

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى(١) ودين الحق وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ،

---

(١) قال تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً — ٢٨ — الفتح .

وقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين — ٢ — البقرة

وقال : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ولا يخلق عن كثرة الترداد، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، لا تنقضى عجائبه ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم (١) .

فكان القرآن هو الامام الذى يقتدى به ولهذا لا يوجد فى كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأى وقياس ولا بذوق ووجد ومكاشفة ولا قال قط قد تعارض فى هذا العقل والنقل فضلا عن أن يقول فيجب تقديم العقل والنقل يعنى القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول ، ولا فيهم من يقول أن له ذوقا أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث فضلا عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته أو يقول الولى أفضل من النبي ونحو ذلك من مقالات أهل الالحاد ، فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد فى المسلمين ، وإنما يعرف مثل هذه إما من ملاحدة اليهود والنصارى فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي كما قد يقوله فى الحواريين فإنهم عندهم رسل وهم يقولون أفضل من داود وسليمان بل ومن إبراهيم وموسى وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور ، ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها ، فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين القران وتدل عليه وتعبر عنه وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخا لها فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها وان كان لايدل عليه ظاهر الآية بل قد وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الابهام والافهام نسخا هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم وأصل ذلك

---

(١) هذا اقتباس من حديث ضعيف رواه الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب عن النبي ﷺ .

الشيطان ثم يحكم الله آياته ، فما ألقاه الشيطان فى الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه ، سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخا كما سموا قوله (فاتقوا الله ما استطعتم) ناسخا لقوله (اتقوا الله حق تقاته) وقوله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ناسخا لقوله (إن تبدو ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وأمثـــال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن ، لا رأى ومعقول وقياس ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هى من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب إذ كان المؤمن هو البر التقى ، قالوا فمن لم يكن برا تقيا فهو كافر وهو مخلد فى النار ، ثم قالوا وعثمان وعلى ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله ، فكانت بدعتهم لها مقدمتان (الواحدة) أن من خالف القرآن بعمل أو برأى أخطأ فيه فهو كافر (والثانية) أن عثمان وعليا ومن والاهما كانوا كذلك ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا فإنه أول بدعة ظهرت فى الاسلام ، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وقد ثبت عن النبي ﷺ الأحاديث الصحيحة فى ذمهم والأمر بقتالهم ، قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ولهذا قد أخرجها مسلم فى صحيحه ، وأفرد البخارى قطعة منها وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن فكيف بمن يكون بدعته معارضة القرآن والاعراض عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين كالجهمية ثم الشيعه لما حدثوا لم يكن الذى ابتدع التشيع قصده الدين بل كان غرضه فاسداً وقد قيل أنه كان منافقاً زنديقاً ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتكذيب الأحاديث الصحيحة ، ولهذا لا يوجد فى فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب .

(والشيعة) لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروى البخارى ومسلم أحاديث على إلا عن أهل بيته كأولاده مثل الحسن والحسين ومثل محمد بن الحنفية وكاتبه عبيد الله ابن أبى رافع أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلمانى والحرث التيمى وقيس بن عباد وأمثالهم إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن على ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة حدثوا بعدمقتل عثمان وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان ، فتفرق المسلمون بعد مقتـــل عثمان ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين . خرجت الخوارج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء فكف عنهم أمير المؤمنين وقال لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفىء ولا نمنعكم المساجد إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم فقتلوا عبد الله بن حباب وأغاروا على سرح المسلمين . فعلم على أنهم الطائفة التى ذكرهم رسول الله صلى عليه وسلم حيث قال « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات وفى رواية يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وقال هم هؤلاء القوم قدسفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد ، فسجد لله شكراً .

وحدث فى أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلى وشيعته بل كانوا ثلاثة طوائف .

طائفة تقول انه إله وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار، وخد لهم أخاديد عند باب مسجد بنى كنده وقيل أنه أنشد

لما رأيت الأمر أمراً منكراً ٭ أججت نارى ودعوت قنبرا

وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال أتى على بزنادقة فحرقهم بالنار ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقوله من بدل دينه فاقتلوه

وهذا الذى قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء وقد روى أنه أجلهم ثلاثا

(والثانية) السابة وكان قد بلغه عن أبى السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه قيل أنه طلبه ليقتله فهرب منه

(والثالثة) المفضلة الذين يفضلونه على أبى بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، وروى ذلك البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر ، قال ثم من ؟ قال عمر وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون فى تفضيل أبى بكر وعمر ، وإنما كان النزاع فى على وعثمان ولهذا قال شريك ابن عبدالله أن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر فقيل له تقول هذا وأنت من الشيعة فقال كل الشيعة كانوا على هذا ، وهو الذى قال هذا على أعواد منبره أفتكذبه فيما قال ، ولهـــذا قال سفيان الثورى من فضل عليا على أبى بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل وهو كذلك رواه أبو داود فى سننه ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حى فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه

ولكن الشيعة لم يكن لهم فى ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج ، تميزوا بالإمام والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال والخروج بالسيف فلهذا جاءت الأحاديث (١) الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنه ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة روى بعضها أهل السنن كأبي داود وابن ماجة وبعض الناس يثبتها ويقويها ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس

(وأما لفظ الرافضة) فهذا اللفظ أول ماظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك واتبعه الشيعة فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما فرفضه قوم فقال رفضتموني رفضتموني ، فسموا الرافضة .فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي زيدية ، والزيدية يتولونه وينسبون اليه ومن حينئذ انقسمت الشيعة إلى زيدية والرافضة إمامية

---

(١) من هذه الأحاديث ما حكاه الشيباني في كتابه تيسير الوصول إلى جامع الأصول ص ٢٩ — ج ٤ قال :

عن أبي سعيد وأنس رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيكون في أمتي اختلاف وفرقة قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يرجعون حتى لا يرتد على فوقه هم شر الخلق : طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء . من قاتلهم كان أولى بالله منهم . قالوا يا رسول الله ماسيماهم ؟ قال : التحليق أخرجه أبو داود وللشيخين عن أبي سعيد نحوه

ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصى ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق للصحابة أنكروا انكارا عظيما وتبرؤا منهم حتى قال (١) عبدالله بن عمر أخبر أولئك أنى برىء منهم وأنهم

(١) ذكر فى صحيح مسلم ج ١ ص ٢٨ عن يحيى بن يعمر قال كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميدى حاجين أو معتمرين ، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن يتقفرون العلم وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم قال حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد اخبرنى عن الاسلام — فقال رسول الله ﷺ : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت إلى آخر الحديث .

منى برآء ، والذى يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث فى صحيح مسلم وقد أخرجه البخارى ومسلم من طريق أبى هريرة أيضاً مختصراً

ثم كثر الخوض فى القدر وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس فى الإرادة وخلق أفعال العباد فصاروا فى ذلك حزبين . النفاة يقولون لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ما أمر به ولم يخلق شيأ من أفعال العباد وقابلهم الخائضون فى القدر من المجبرة مثل الجهم ابن صفوان وأمثاله فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة والأمر والنهى لا يستلزم إرادة ، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهم مع ذلك ينفى الاسماء والصفات يذكر عنه أنه قال لا يسمى الله شيأ ولا غير ذلك من الأسماء التى تسمى بها العباد إلا القادر فقط لأن العبد ليس بقادر .

وكانت الخوارج قد تكلموا فى تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة وقالوا إنهم كفار مخلدون فى النار ، فخاض الناس فى ذلك وخاض فى ذلك القدرية بعد موت الحسن البصرى ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون فى النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الاسلام والايمان شىء ولكن لم يسموهم كفاراً ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصرى مثل قتادة وأيوب السختيانى وأمثالهما فسموا معتزلة (١) من ذلك الوقت بعد موت الحسن وقيل أن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة

---

(١) المعتزلة : فرقة من الفرق الإسلامية نشأت فى أوائل القرن الثانى الهجرى على يد زعيمهم واصل بن عطاء وخبر ذلك أن واصل بن عطاء كان يجلس فى درس أستاذه الحسن البصرى فدخل رجل وسأل الحسن عن حكم

وتنازع الناس فى الأسماء والأحكام أى فى أسماء الدين مثل مسلم ومؤمن وكافر وفاسق ، وفى أحكام هؤلاء فى الدنيا والآخرة ، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم فى الآخرة دون الدنيا فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم ما استحلته الخوارج ، وفى الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين وهذه خاصة المعتزلة التى انفردوا فيها وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم

وحدثت المرجئة ، وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعى وامثاله ، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا ان الاعمال ليست من الإيمان ، وكانت هذه البدعة أخف البدع فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع فى الاسم واللفظ دون الحكم إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبى سليمان وأبى حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث (١) الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد فى الإيمان أن يتكلم بلسانه وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب .

= مرتكب الكبيرة وقبل أن يجيب الحسن قال واصل إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، واتخذ له مجلساً فى المسجد وأخذ يقرر مذهبه فقال الحسن البصرى قد اعتزلنا واصل وللمؤلف مبحث مستفيض عنهم وعن مبادئهم فى هذا الكتاب ستقرؤه قريبا .

(١) من هذه الأحاديث ما ورد فى صحيح مسلم ج ١ ص ١١٧ قال : عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته ويدخل أهل النار النار ثم يقول : أنظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حمما قد امتحشوا فيلقون فى نهر الحياة أو الحيا فينبتون منه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية .

فكان فى الأعمال هل هى من الإيمان وفى الاستثناء ونحو ذلك وعامته نزاع لفظى فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبى ﷺ (الإيمان(١) بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) وإذا عطف عليه العمل كقوله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقد ذكر مقيداً بالعطف فهنا قد يقال الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام وقد يقال لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف كما فى اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر ، فهما صنفان كما فى آية الصدقات كقوله (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) وكما فى آية الكفارة كقوله (فكفارته إطعام عشرة مساكين) وفى قوله (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فالفقير والمسكين شىء واحد .

وهذا التفصيل فى الإيمان هو كذلك فى لفظ البر والتقوى والمعروف ، وفى الإثم والعدوان والمنكر تختلف دلالتها فى الأفراد والاقتران لمن تدبر القرآن وقد بسط هذا بسطاً كبيراً فى الكلام على الإيمان وشرح حديث جبريل الذى فيه بيان أن الإيمان أصله فى القلب وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال الإسلام علانية والإيمان فى القلب وقد قال ﷺ فى الحديث الصحيح الا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب .

فإذا كان الإيمان فى القلب فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد فلذلك هو ثمرة ما فى القلب فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الإيمان وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت فى الإسم كما نطق بذلك الكتاب والسنة فى غير موضع ، وفى الجملة الذين رموا بالإرجاء من الأكابر مثل طلق بن حبيب وإبراهيم التيمى ونحوهما كان إرجاؤهم من هذا النوع .

وكانوا أيضاً لا يستثنون فى الإيمان ، وكانوا يقولون الإيمان هو الإيمان

---

(١) رواه البخارى ومسلم

الموجود فينا ونحن نقطع بأنا مصدقين ، ويرون الاستثناء شكا وكان عبد الله ابن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روى فى حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث ، وصار الناس فى الاستثناء على ثلاثة أقوال قول أنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعا ، وقول أن الاستثناء محظور فإنه يقتضى الشك فى الإيمان ، والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار وتركه باعتبار ، فإذا كان مقصوده أنى لا أعلم أنى قائم فى كل ما أوجب الله على وأنه يقبل أعمالى ليس مقصوده الشك فيما فى قلبه ، فهذا استثناؤه حسن . وقصده أن لا يزكى نفسه وأن لا يقطع بأنه عمل عملا كما أمر فقبل منه والذنوب كثيرة والنفاق مخوف على عامة الناس .

قال ابن أبى مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه لا يقول واحد منهم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والبخارى فى أول صحيحه بوب أبواباً فى الإيمان وارد على المرجئة ، وقد ذكر بعض من صنف فى هذا الباب من أصحاب أبى حنيفة وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل إيمانى كإيمان جبريل وميكائيل ، قال محمد لأنهم أفضل يقيناً أو إيمانى كإيمان جبريل أو إيمانى كإيمان أبى بكر أو كإيمان هذا . ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء فى الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحارم ، بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده كما قالوا فى قوله أنت طالق إن شاء الله ، فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط ، قالوا وشرط المشيئة الذى يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة فإذا علق العزم بالفعل على التصديق

والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد فلا معنى للاستثناء ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمنا ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق وذلك يزيله .

﴿ قلت ﴾ فتعليلهم فى المسئلة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة كالذى يريد الدخول فى الإسلام فيقال له آمن فيقول أنا أومن إن شاء الله أو آمنت إن شاء الله أو أسلمت إن شاء الله أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله وأشهد إن شاء الله أن محمداً رسول الله .

والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا فى الإنشاء ، وإنما كان استثناؤهم فى إخباره عما قد حصل له من الايمان فاستثنوا أما إن الايمان المطلق يقتضى دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة كأنه إذا قيل للرجل أنت مؤمن قيل له أنت عندالله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول أنا كذلك إن شاء الله أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الايمان الواجب ، ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له أنت مؤمن آمنت بالله وملائكته وكتبه فيجزم بهذا ولا يعلقه أو يقول إن كنت تريد الايمان الذى يعصم دمى ومالى فأنا مؤمن وإن كنت تريد قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) ٢ الأنفال وقوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) ١٥ الحجرات فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الاستثناء لم يستثن فيه أحد ولا شرع الاستثناء فيه بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزماً بلا تعليق .

فتبين أن النزاع فى المسئلة قد يكون لفظياً فإن الذى حرمه هؤلاء غير الذى استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما فى قلبه من الحال . وهذا حق لا ينافى تعليق الكمال والعاقبة ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الايمان ، فصار الايمان هو الاسلام عند أولئك

والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى فى الاسلام وهو المشهور عن أحمد رضى الله عنه ، وقد روى عنه فيه الاستثناء كما قد بسط هذا فى شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الايمان التى فى الكتاب والسنة .

ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله ففيه نزاع مشهور وقد رجحنا التفصيل وهو أن الكلام يراد به شيآن يراد به إيقاع الطلاق تارة ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ فقوله إن شاء الله مثل قوله بمشيئة الله وقدشاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع ، وإن كان قد علق لئلا يقع أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا ، لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق ، وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولى أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن . وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومن بعد ذلك فهذا لم يصر مؤمنا مثل الذى يقال له هل تصير من أهل دين الاسلام فقال أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلم بل هو باق على الكفر ، وإن كان قصده أنى قد آمنت وإيمانى بمشيئة الله صار مؤمنا ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا . فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ فى الانشاء .

وأيضاً فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا ، فأما الماضى والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا فى الانشاء كما تقدم كيف وقد أمروا أن يقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) ١٢٦ البقرة وقال تعالى (آمن الرسول

بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) ٢٨ البقرة فأخبر أنهم آمنوا فرقع الايمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، ما استثنى أحد من السلف قط فى مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يخبر عن نفسه بأنه بر تقى فيقول القائل له أنت مؤمن هو عندهم كقوله هل أنت بر تقى ، فإذا قال أنا بر تقى فقد زكى نفسه فيقول إن شاء الله وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الايمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ، بل يقال هـــذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه ، وقوله فيه « إن شاء الله » بمعنى إذا شاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق

والرجل قد يقول والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون ، فالمعلق هو الفعل كقوله (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمى لأفعلن كذا إن شاء الله وهو لا يجزم بأنه يقع لكن يرجوه فيقول يكون إن شاء الله ، ثم عزمه عليه قد يكون جازماً ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقا بالمشيئة أيضاً ولكن متى كان المعزوم عليه معلقا لزم تعليق بقاء العزم فإنه بتقدير ان تعليق العزم ابتداء أو دواما فى مثل ذلك .

ولهذا لم يحنث المطلق المعلق وحرف أن لا يكون لا يبقى العزم ، فلا بد إذا دخل على الماضى صار مستقبلا تقول إن جاء زيد كان كذلك (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) (وان تولوا فإنما عليك البلاغ) وإذا أريد الماضى دخل حرف كان كقوله (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) فيفرق بين قوله أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله إن كان الله شاء إيمانى .

وكذلك إذا كان مقصوده أنى لا أعلم بماذا يختم لى كما قيل لأبى مسعود أن فلانا يشهد أنه مؤمن قال فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد

أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان ، وكذلك إن كان مقصوده أن إيمانى حاصل بمشيئة الله .

ومن لم يستثن قال أنا لا أشك فى إيمان قلبى فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله وإن لم يقل أن إيمانه كإيمان جبريل وأبى بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة كما كان مسعر بن كدام يقول أنا لا أشك فى إيمانى ، قال أحمد ولم يكن من المرجئة فان المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست من الإيمان وهو كان يقول هى من الإيمان ، لكن أنا لا أشك فى إيمانى .

وكان الثورى يقول لسفيان بن عيينة ألا تنهاه عن هذا فإنهما من قبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع فى هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة فى كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الايمان والقرآن .

وأما جهم فكان يقول أن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذى نصره الأشعرى وأكثر أصحابه ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم فى الايمان .

والأصل الذى منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شىء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعرى إن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء كما كان أصل القدر عجزهم عن الايمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين ، قالت الخوارج والمعتزلة قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الايمان فمن تركها فقد ترك بعض الايمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه لأن الايمان لا يتبعض ،

ولا يكون فى العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين فى النار إذا كان ليس معهم من الايمان شىء ، وقالت المرجئة مقتصدتهم وغلاتهم كالجهمية قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون فى النار بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم فى أحكامهم فى الدنيا

والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم فلا يرجمون الزانى ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون ليس فى القرآن قتل المرتد فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والأشعرية والسالمية وأهل المذاهب الأربعة والظاهرية ومذاهب أهل الحديث والفلاسفة والصوفية ونحو هؤلاء ، وقد بسط الكلام على تفصيل القول فى أقوال هؤلاء فى غير هذا الموضع .

وأن الناس فى ترتيب أهل الأهواء على أقسام منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه ، فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضى الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه وكالخلال وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما وكأبى الفرج المقدسى وكلا الطائفتين تختم بالجهمية لأنهم أغلظ البدع وكالبخارى فى صحيحه فإنه بدأ بكتاب الايمان والرد على المرجئة وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ولما صنف الكتاب فى الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولا مع الجهمية وكذلك رتب أبو القاسم الطبرى كتابه فى أصول السنة والبيهقى أفرد لكل صنف مصنفاً فله مصنف فى الصفات

ومصنف فى القدر ، ومصنف فى شعب الايمان ، ومصنف فى دلائل النبوة ، و صنف فى البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع فى الأسماء والأحكام فى الايمان والاسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض قال أولئك فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد فى النار ، فقالت الجهمية والمرجئة قد علمنا أنه ليس يخلد فى النار وأنه ليس كافراً مرتداً بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الايمان معه بعض الايمان لأن الايمان عندهم لا يتبعض فاحتاجوا أن يجعلوا الايمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة فقال فقهاء المرجئة هو التصديق بالقلب والقول باللسان فقالت الجهمية بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً فالذى لابد منه تصديق القلب ، وقالت المرجئة الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال وأنكر كل هذه الطوائف أنه ينقص .

والصحابة قد ثبت عنهم أن الايمان يزيد وينقص وهو قول أئمة السنة وكان ابن المبارك يقول هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك فى كونه لا ينقص روايتان ، والقرآن قد نطق بالزيادة فى غير موضع ودلت النصوص على نقصه كقوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا فى قوله فى النساء « ناقصات عقل ودين » وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة أن الايمان يتفاضل من وجهين : من جهة أمر الرب ومن جهة فعل العبد .

أما الأول فإنه ليس الإيمان الذى أمر به شخص من المؤمنين هو الايمان الذى أمر به كل شخص ، فإن المسلمين فى أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الايمان ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة فكان من الايمان فى أول الأمر الايمان بوجوب استقبال بيت

المقدس ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الإيمان فى الشريعة الواحدة .

وأيضاً فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الاقرار المجمل ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الايمان .

وهذا من أصول غلط المرجئة فإنهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوى فيه جميع المكلفين فقالوا إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس ، فيقال لهم قد تبين أن الايمان الذى أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تبايناً عظيما فيجب على الملائكة من الايمان مالا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الايمان مالا يجب على غيرهم ويجب على العلماء مالا يجب على غيرهم ويجب على الأمراء مالا يجب على غيرهم .

وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط بل ومن التصديق والاقرار فإن الناس وإن كان يجب عليهم الاقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول ، فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالاقرار به مفصلا ، وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فمن امر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والايمان بها فيجب عليه من الايمان والعمل مالا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ومن الايمان بذلك والعمل به مالا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والايمان والعمل مالا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الايمان ، وإن جعل جميع ذلك داخلا فى مسمى الايمان كان أبلغ فبكل حال قد وجب عليه من الايمان مالا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقا مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة وطائفة نافقت لما انهزمت المسلمون يوم أحد ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين فى القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك فى سورة المنافقين . وذكر مثل ذلك فى سورة البقرة فقال (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وقال طائفة من السلف عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولا إيمانا مجملا ثم يأتى أمورا يؤمن بها فينافق فى الباطن وما يمكنه اظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا كما ذكر الله عنهم فى الجهاد فقال (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) ٢٠ محمد

وبالجملة فلا يمكن المنازعة أن الايمان الذى أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون فى إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ولهذا قال النبى ﷺ فى النساء ناقصات عقل ودين وقال فى نقصان دينهن أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى وهذا مما أمر الله به فليس هذا النقص دينا لها تعاقب عليه لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة فى هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة فى كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصيا فهذا أفضل دينا وايماناً وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات لكن هذه زيادة بواجب فى حق شخص وليس بواجب فى حق شخص غيره فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها وذاك لا يستحق العقاب بتركها ولكن إيمان ذلك أكمل قال النبى ﷺ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا .

فهذا يبين تفاضل الايمان في نفس الأمر به وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها .

والنوع الثاني وهو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع ، وهذا أيضا يتفاضلون فيه فليس إيمان السارق والزاني والشارب ، كإيمان غيرهم ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل دينا وبرا وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانا كما قال النبي ﷺ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر .

وأصل هؤلاء أن الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الايمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال فعلماؤهم وأئمتهم أحسنهم قولا وهو أن قالوا الايمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية هو تصديق القلب فقط ، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الايمان ، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة وإن كان مكذبا بقلبه كان منافقا مؤمناً من أهل النار .

وهذا القول هو الذي اختصت به طائفة الكرامية وابتدعته ولم يسبقها أحد إلى هذا القول وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الايمان . وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة وهو غلط عليهم ، بل يقولون أنه مؤمن كامل الايمان وأنه من أهل النار فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الايمان معذباً في النار بل يكون مخلداً فيها .

وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وإن قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار والمنافقون قد قال الله فيهم إن المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) ١٤٥ النساء .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ٨٠ التوبة وقال(ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) ٨٤ التوبة وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فإن قالوا هؤلاء فقد كانوا يتكلمون بألسنتهم سراً فكفروا بذلك وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه فإن ذلك رده عن الايمان .

قيل لهم ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين قال تعالى (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون ٦٤ التوبة وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم وأنهم كاذبون فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) ٨ البقرة وقال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ١ — المنافقون وقد قال النبي ﷺ الاسلام علانية والايمان فى القلب وقد قال الله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ١٤ الحجرات وفى الصحيحين عن سعد أن النبي ﷺ أعطى رجالا ولم يعط رجلا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم مرتين أو ثلاثا ، وبسط الكلام فى هذا له مواضع آخر ، وقد صنفت فى ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس فى هذا الاسم ومسماه كثير لأنه قطب الدين الذى يدور عليه . وليس فى القول اسم علق به السعادة والشقاء والمدح والذم والثواب والعقاب أعظم من إسم الايمان والكفر ولهذا سمى هذا الأصل مسائل

الأسماء والأحكام ، وقد رأيت لابن الهيضم فيه مصنفاً فى أنه قول اللسان فقط ورأيت لابن الباقلانى فيه مصنفا أنه تصديق القلب فقط وكلاهما فى عصر واحد وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والايمان فلما حدث فى الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعا صار هؤلاء عمدتهم فى الباطن ، ليست على القرآن والايمان ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون فى التوحيد والصفات والقدر والايمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ماظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ولم يستقصوا مافى القرآن من ذلك المعنى إذ كان اعتمادهم فى نفس الأمر إلى غير ذلك والآيات التى تخالفهم يشرعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم كأبى الحسين البصرى ومن تبعه كالرازى والآمدى وابن الحاجب أن الأمة إذا اختلفت فى تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث بخلاف ما إذا اختلفوا فى الأحكام على قولين ، فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال فى تفسير القرآن والحديث وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون . ولكن قالوا إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا ، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ ، والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم .

والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال فى لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى وكذلك إذا قال يجوز أن يراد بها هذا المعنى والأمة قبله لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا فقدجوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة وأخبرت أن مراده غير ما أراده .

لكن الذى قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ، ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية ، ولكن طائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى ، وطائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد ، فجاء الثالث وقال هو هنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعانى القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون فى دينهم لا على القرآن ولا على الايمان الذى جاء به الرسول بخلاف السلف : فلهذا كان السلف أكمل علما وإيمانا وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه ، وكان الأصل الذى أسسوه هو ما أمرهم الله به فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) فإن هذا أمر المؤمنين بما وصف به الملائكة كما قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم بأمره يعملون فلا يخبرون عن شىء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعا لخبره وقوله كما قال (لا يسبقونه بالقول) وأعمالهم تابعة لأمره فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به فهم مطيعون لأمره سبحانه .

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد وقال بعضهم بل لا يعصونه فى الماضى ويفعلون ما أمروا به فى المستقبل .

وأحسن من هذا وهذا أن العاصى هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته

على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فإذا قال (لا يعصون الله ما أمرهم) لم يكن فى هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون فإن العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به فقال (ويفعلون ما يؤمرون) ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية ، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين إما أن لا يكون قادراً ، وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعا يريد طاعة الآمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به ، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقد وصف الملائكة بأنهم (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) :

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم مطيعون لأمره ولا يخبرون حتى يخبر ، ولا يعملون حتى يأمر ، كما قال تعالى (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه بل بينهم وبينه رسول من البشر ، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ولا يعملون إلا بما أمرهم به كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم).

قال مجاهد لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه ، تقدموا معناه تتقدموا وهو فعل لازم وقد قرىء يقدموا يقال قدم وتقدم كما يقال بين وتبين ، وقد يستعمل قدم متعديا أى قدم غيره لكن هنا هو فعل لازم فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدى الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم فى شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعاً لقوله وعلمه تبعاً لأمره ، فهذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس ديناً

غير ما جاء به الرسول وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة، وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم فى الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول بل على ما رووه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلا.

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة وأهل النفاق والبدعة وان كان هؤلاء لهم من الايمان نصيب وافر من اتباع السنة لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدى الله ورسوله، وخالفوا الله ورسوله، ثم ان لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين بل ناقصى الإيمان مبتدعين، وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به.

﴿ فصل ﴾ وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنا وظاهرا فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق فى نقيضه وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا والاعتقاد الباطل لا يكون علما وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه فمن نهى عنه فهو نهى عن العدل، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم، فإن ضد العدل الظلم، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلما ظنا وما تهوى الأنفس، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعا لبعض الأنبياء ثم نسخ، وأدناهما أن يكون ما شرع قط بل يكون من المبدل، فكل ما خالف حكم الله ورسوله فإما شرع منسوخ وأما شرع مبدل ما شرعه الله بل شرعه شارع بغير إذن من الله كما قال (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

لكن هذا وهذا قد يقعان فى خفى الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها استفرغوا فيـــه وسعهم فى طلب الحق ويكون لهم من الصواب والاتباع

ما يغمر ذلك كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ، ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهرا بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول ، وهم معتصمون بحبل الله يحكمون الرسول فيما شجر بينهم لا يتقدمون بين يدى الله ورسوله فضلا عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهرا لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جليا لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وان كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ويثيبهم على اجتهادهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملها في ذلك الزمان ، لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ، فإن الذى سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته ، وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين ، وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه في مثل تلك الحال ، أمر ما بقى يحصل مثله لأحد كما في الصحيحين عنه ﷺ لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال : « خير القرون قرنى الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثانى ، والثانى أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث ، وكذلك في الثالث مع

الثانى ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟ هذا فيه نزاع وفيه قولان حكاهما القاضى عياض وغيره ، ومن الناس من يفرضها فى مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز ، فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعدو أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس كما قال تعالى فى المشركين الذين يعبدون اللات والعزى (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)

وقال فى الذين يخبرون عن الملائكة أنهم أناث (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيأ ، فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وهم جعلوهم إناثا كما قال (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) وفى القراءة الأخرى عند الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون . وهؤلاء قال عنهم (إن يتبعون إلا الظن) لأنه خبر محض ليس فيه عمل ، وهناك (وما تهوى الأنفس) لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم فقال (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) .

والذى جاء به الرسول كما قال (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى) وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها كان غايته الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقى إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلا : إما أن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهانا وأدلة قطعية ، وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعانى متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها كما يوجد مثل ذلك فى جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وهذه هى الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فإما أن تكون كذبا على الرسول أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع إما فى الإسناد وإما فى المتن ودلالته على ما ذكر ، وهـــذه الحجة السمعية ، هذه حجج أهل العلم الظاهر .

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال (قد كان فى الأمم قبلكم محدثون(١) فإن يكن فى أمتى أحد فعمر) وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تجلى لهم أمور صادقه

وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ٧٥ الحجر وقال بعض الصحابة أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وفى رواية فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به

وكانوا يقولون أن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه وقال ﷺ (من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده) وقال الله تعالى (نور على نور) الايمان مع نور القرآن وقال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) وهو المؤمن على بينة

(١) أى ملهمون .

من ربه ويتبعه شاهد من الله وهو القرآن شهد الله فى القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان .

وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا فى وجوب النظر وتحصيله للعلم فقيل لهم أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله (١) يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر كما قال الشيخ الملقب بالكبيرى للرازى ورفيقه وقد قالا له يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين فقال نعم فقالا كيف تعلم ونحن نتناظر فى زمان طويل كلما ذكر شيئا أفسدته ، وكلما ذكرت شيئا أفسده ، فقال هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له ، وكان من المعتزلة النفاة ، فبين له أن الحق مع أهل الإثبات وأن الله سبحانه فوق سمواته وعلم ذلك بالضرورة .

رأيت هذه الحكاية بخط القاضى نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسى وذكر أن الشيخ الكبيرى حكاها له وكان قد حدثنى بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه وكلام المشايخ فى مثل هذا كثير .

وهذا الوصف الذى ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون فإنهم قد قسموا العلم الى ضرورى ونظرى . والنظرى مستند الى الضرورى والضرورى هو العلم الذى يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه معه الانفكاك عنه هذا حد القاضى أبى بكر الطيب وغيره ، فخاصته أنه يلزم النفس لزوما لا يمكن مع ذلك دفعه فقال لهم علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس وهو علم يلزم النفس لزوما لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال « واردات » لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به فالواردات تحصل بهذا وهذا .

وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار متقدميهم كالكيا الهراسى والغزالى وغيرهما ومتأخريهم كالرازى والآمدى وقالوا نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضرورى بما يحصل لنا بالنظر ، هذا لا يدفعه لكن ان لم يكن علما ضروريا

---

(١) التبتل والانقطاع للعبادة .

فلا بد له من دليل والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه ، قالوا فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذى حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع لكن يقع أيضا ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل كما يقع فى الأدلة العقلية والسمعية ، فمن هؤلاء من يسمع خطابا أو يرى من يأمره بقضية ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ويكون ذلك الذى يخاطبه الشيطان ، وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب ، ورجال الغيب هم الجن وهو يحسب أنه إنسى وقد يقول له أنا الخضر أو إلياس بل أنا محمد أو إبراهيم الخليل أو المسيح أو أبو بكر ، أو عمر أو أنا الشيخ فلان أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به فى الهواء أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ويكون ذلك شيطانا ألبس عليه .

فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة كما أعرف من الغلط فى السمعيات والعقليات ، فهؤلاء يتبعون ظنا لا يغنى من الحق شيئا ولو لم يتقدموا بين يدى الله ورسوله بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوبا إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة فيكون متبعا لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه كقول المشركين إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، وإن عكسوا احتجوا بالقدر وهو أن الله أراد هذا وسلطنا عليه فهم يعملون بهواهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه وأن يستعينوا بالله فيقولون

(إياك نعبد وإياك نستعين) لا حول ولا قوة إلا بالله لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجد وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه وكل صاحب محبة له في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان صاحبه متبعا لهواه بغير هدى وقد قال الله تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ٥٠ القصص وقال تعالى (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو اعلم بالمعتدين) ١١٩ الأنعام .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظنا لا يغني من الحق شيئا .

فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر كما قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم ، وقد وافق عمر ربه في عدة(١) أشياء ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به

---

(١) من هذه الموافقات موافقته للوحي في أمر الأذان وبيان ذلك أن المسلمين كانوا يجتمعون للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمسلمين بوقا كبوق اليهود يدعون به لصلاتهم لكنه كره البوق فأمر بناقوس يدق فنحت الناقوس وكلف عمر أن يشتري له الغداة خشبتين وبينما عمر نائم في داره إذ رأى في المنام لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بما رأى فإذا الوحي قد سبقه .

ومنها : موافقته لخبر السماء في أمر أسرى بدر وخبر ذلك أن الرسول =

الرسول ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ولا يتقدم بين يدى الله ورسوله بل يجعل ما ورد عليه تبعا ، وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ويوم ناظره من مانع الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن فيرجع إليها كما جرى فى مهور النساء ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله فى الاعتصام بالكتاب والسنة تبعا لما جاء به الرسول

= ﷺ استشار أصحابه فى أمر الأسرى فانتهوا إلى قبول الفداء إلا عمر رضى الله عنه فكان الشدة كل الشدة والبأس كل البأس على هؤلاء حيث قال يا رسول الله « هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك اضرب رقابهم هم رءوس الكفر وأئمة الضلال يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك » ولكن رسول الله ﷺ أخذ برأى الغالبية — وهو ما يوائم طبيعته وما وصفه القرآن به « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » — وقبل الفداء فأنزل الله تبارك وتعالى . ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ٦٧ ، ٦٨ الأنفال .

ومنها : موافقته للقرآن فى أمر الحجاب : روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان عمر يقول لرسول الله ﷺ أحجب نساءك فلم يفعل وكان أزواج النبى ﷺ يخرجون ليلا قبل المناصع — المواضع التى يتخلى فيها الناس لقضاء الحاجة — خرجت سودة بنت زمعة وكانت امرأة طويلة فرآها عمر بن الخطاب فأنزل الله آية الحجاب « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول الخ الآيات الأحزاب .

لا يجعل ما جاء به الرسول تبعا لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطؤا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول وصار أحدهم يقول أخذوا علمهم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذى لا يموت ، فيقال له أما مانقله الثقات عن المعصوم فهو حق ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحى من الله ؟ ومن أين لك أنه ليس من وحى الشيطان ؟

والوحى وحيان وحى من الرحمن ووحى من الشيطان قال تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) ١١١ الأنعام وقال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) ١٢٣ الشعراء .

وقد كان المختار بن أبى عبيد من هذا الضرب حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما أنه يقول أنه يوحى إليه فقال وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وقيل للآخر أنه يقول أنه ينزل عليه ، فقال هل أنبئكم على من تنزل الشياطين .

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيمانى القرآنى النبوى الشرعى أعظم من حاجة غيرهم . وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر اليها الإنسان بغير اختياره كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره كما أن النظار لهم قياس ومعقول وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هى طرق العلم الحس والخبر والنظر ، وكل إنسان من هذه الثلاثة فى بعض الامور لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس فى الدين وغير الدين كالطب فإنه تجربات وقياسات ، وأهله منهم من يغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ؛ والتجربة لا بد فيها من قياس . لكن مثل قياس العاديات لا يعرف فيه العلة والمناسبة .

وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية فلابد له من الحسيات التى هى الاصل ليعتبر بها ، والحس ان لم يكن مع صاحبه عقل والافقد يغلط

والناس يقولون غلط الحس ، والغلط تارة من الحس وتارة من صاحبه فان الحس يرى أمرا معينا فيظن صاحبه فيه شيأ آخر ، فيؤتى من ظنه فلابد له من العقل .

ولهذا النائم يرى شيأ وتلك الامور لها وجود وتحقيق ، ولكن هى خيالات وأمثلة فلما عزب ظنها الرائى نفس الحقائق كالذى يرى نفسه فى مكان آخر يكلم أموانا ويكلمونه ، ويفعل أمورا كثيرة وهو فى النوم يجزم بأنه نفسه الذى يقول ويفعل ، لان عقله عزب عنه وتلك الصورة التى رآها مثال صورته وخيالها لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن ان ذلك المثال هو نفسه فلما ثاب اليه عقله علم ان ذلك خيالات ومثالات

ومن الناس من لا يغيب عقله بل يعلم فى المنام أن ذلك فى المنا ، وهذا كالذى يرى صورته فى المرآة أو صورة غيره ، فاذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هى الشخص حتى انه يفعل به ما يفعل بالشخص ، وهذا يقع للصبيان والبله كما يخيل لأحدهم فى الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل فيظنونه شخصا حقيقة ، ولا يعلمون انه خيال ، فالحس أحس صحيحا لم يغلط لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال ، فان العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثالا ، وقد عقل لوازم الشخص بعينه وانه لا يكون فى الهواء ولا فى المرآة ولا يكون بدنه فى غير مكانه ، وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ماله وجود فى الخارج وما لا يكون موجوداً الا فى أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعرفه كل أحد ، ولكن قد يرون فى الخارج أشخاصاً يراها عيانا ، ومافى خيال الانسان لا يراه غيره ويخاطبهم أولئك الاشخاص ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها وإما إلى غير عرفات ، ويأتوهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح

وغير ذلك يخرجون إلى الناس ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه مثل من يكون له إرادة فى امرأة أو صبي فيأتونه بذلك إما محمولا فى الهواء وإما بسعى شديد ويخبرأنه وجد فى نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه أو يخبر أنه سمع خطابا وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه .

فهذا كله موجود كثيراً لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله ويعلمه من السحر ، ومنهم من يعلم ان ذلك من الجن ويقول هذا كرامة أكرمنا بها بتسخير الجن لنا ، ومنهم من لا يظن أولئك الأشخاص الا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال هؤلاء رجال الغيب وإن يسموا قالوا هذا هو الخضر وهذا هو الياس ، وهذا هو أبى بكر وعمر . وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عدى أو الشيخ أحمد الرفاعى أو غير ذلك ظن أن الأمر كذلك ، فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء .

وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه فى اليقظة ومن يرى ذلك عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو الشيخ وهو صادق فى انه اياه من قال انه النبي أو الشيخ أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك ، والذى له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع مثل أن يأمره بما يخالف أمر الله ورسوله وتارة يعلمه أن النبي ﷺ ماكان يأتى أحداً من أصحابه بعد موته فى اليقظة ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لى ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره وأن روحه فى الجنة لا تصير فى الدنيا هكذا .

وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفيقة فلان ، وقد يقولون هو معناه يشكل وقد يقولون روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى ولا فلانا يحضرنى ، فأنى أنا أغسل نفسى ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت أنك تجىء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً فإنه كان فى حياته يقول له أموراً ، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشركين كالهند فهذا كثيراً

ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ورد ودائع وقضى ديوناً ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه وإنما هو شيطان تصور في صورته .

ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أوغيره والميت على سريره وهو يراه آخذاً يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه فلا يشك أبنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطاناً ، ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم أنه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الانس الصالحين ويسمونه خالداً الغيبي ، وينسبون الشيخ اليه فيقولون محمداً الخالدي ونحو ذلك .

فإن الجن مأمورون ومنهيون كالإنس وقد بعث الله الرسل من الانس اليهم وإلى الانس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهذا بعد قوله (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) .

قال غير واحد من السلف أي كثير من أغويتم من الانس وأضللتموهم قال البغوي قال بعضهم استمتاع الانس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الاراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالانس طاعة الانس لهم فيما يزينون لهم ن الضلالة والمعاصي قال محمد بن كعب هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضا .

وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الانس ، وعن محمد بن كعب قال هو الصحابة في الدنيا ، وقال ابن السائب استمتاع الانس بالجن استعاذتهم بهم واستمتاع الجن بالانس أن قالوا قدأسرنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفا

فى أنفسهم وعظماً فى نفوسهم وهذا كقوله (وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا)

قلت الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به ينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ويدخل فى ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض كما قال (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) ٢٤ — النساء ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والاناث بالاناث .

ويدخل فى هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ويدخل فى ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ومنه قوله (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) ٢٣٦ — البقرة وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهى تستمتع بخدمته ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة ولهذا قال الفقهاء أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزى فيها الصلاة .

وفى الجملة استمتاع الانس بالجن ، والجن بالانس يشبه استمتاع الانس بالانس قال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ٦٧ — الزخرف وقال تعالى (وتقطعت بهم الأسباب) ١٦٦ - البقرة قال مجاهد هى المودات التى كانت لغير الله وقال الخليل (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيـــاة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) ٢٥ — العنكبوت وقال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ٢٣ — الجاثية فالمشرك يعبد ما يهواه واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه وقد وقع فى الانس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلا لهؤلاء فى أغراضهم وهؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن فتارة يسجد له وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذى يخدمنه ما يريد نساء الانس من الرجال ، وهذا كثير فى رجال الجن ونسائهم . فكثير

من رجالهم ينال من نساء الانس مايناله الانسي ، وقد يفعل ذلك بالذكران(١)

وصرع الجن للانس هو لأسباب ثلاثة تارة يكون الجنى يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الانسي آذاهم إذا بال عليهم أو صب عليهم ماء حاراً أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى ، وهذا أشد الصرع وكثيراً مايقتلون المصروع وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الانس بأبناء السبيل .

ومن استمتاع الانس بالجن استخدامهم في الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان ، فإن في الانس من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب لم تبال بأن يقال أنه كاهن كما كان العرب كهاناً ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان فإنه لا يخدم الانسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الانسي بأن يطيعه الانسي في بعض ما يريده إما في شرك وإما في فاحشة وإما في أكل حرام وإما في قتل نفس بغير حق .

فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقولون بأمر السارق أن يسرق ويذهب إلى أهل المال فيقولون فلان سرق متاعكم ، ولهذا يقال القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية . فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب ، وهو دفع المؤذي ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ، ولا دفع مضرة .

---

(١) رحم الله المؤلف وغفر له ، فكل هذا وما بعده ينكره القرآن والحديث .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقاً لمصلحة ومنفعة لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذى لا منفعة فيه ويحب ذلك كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتاع الانس بالجن استخدامهم فى إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره ، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجنى فى صورة الإنسى ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به يا سيدى فلان فينقل الجنى ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسى حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسى بعينه ، ثم إن الشيخ يقول نعم ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتى الجنى بمثل ذلك الصوت والفعل فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذى أجابه ، وهو الذى فعل ذلك ، حتى إن تابع الشيخ قد يكون يده فى إناء يأكل فيضع الجنى يده فى صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجنى يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الاناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده فى ذلك الاناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدى كانت فى الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجنى مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجنى وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه ان يخبر بحاله ، أو علة فى النساء أو غير ذلك فإن الجنى قد يمثل ذلك فيريه

صورة المسروق فيقول الشيخ ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذى أخذ . أو المكان الذى فيه المال فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه لأن الذى سرق المال معه أيضا حتى يخدمه

والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً فإذا دل الجنى عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه . وأحياناً لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به إما لرغبة ينالها منه وإما لرهبة وخوف منه وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه .

فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفون كتكليف الإنس ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين وأما مؤمنهم ففيهم قولان وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة وقد روى أنهم يكونون فى ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال فى الدنيا وهو حديث رواه الطبرانى فى معجمه الصغير يحتاج النظر فى إسناده ، وقد احتج ابن أبى ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) وقد ذكر الجن والانس الأبرار والفجار فى الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعى وغيره بقوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقد قال تعالى فى الأحقاف (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا) وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) ثم قال ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم درجات أهل الجنة تذهب علواً ودرجات أهل النار تذهب سفلا ، وقد قال تعالى عن قول الجن (منا الصالحون ومنا

دون ذلك كنا طرائق قددا) وقالوا (وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) ففيهم الكفار والفساق والعصاة وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما فى الانس وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الانس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى . والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الانس لهم مثل استخدام الانس للانس بشىء ، منهم من يستخدمهم فى المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين ، ومنهم من يستخدمهم فى أمور مباحة إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الانس بعضهم ببعض فى ذلك .

والنوع الثالث أن يستعملهم فى طاعة الله ورسوله كما يستعمل الانس فى مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الانس وينهاهم ، وهذه حال نبينا صلى الله عليه وسلم وحال من اتبعه واقتدى به من أمته وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الانس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الانس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثا بذلك إلى الثقلين الانس والجن (١) وقد قال الله له (قل هذه سبيلى ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) وقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) .

وعمر رضى الله عنه لما نادى يا سارية الجبل قال إن لله جنوداً يبلغون

---

(١) يؤيد هذا ما ورد فى سورة الأنعام آية ١٣٠ من قوله تعالى « يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا الخ والأمر على التغليب إذ الرسل من الانس فقط .

صوتى ، وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن ، فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر ، وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه فى هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه فيقول يا فلان فيعان على ذلك فيقول الواسطة بينهما يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد عنه يا فلان احبس الماء تعال إلينا وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك يا فلان احبس الماء ارسل الماء إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأى صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر فقال عمر من أين لكم هذا ؟ قالوا شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا فقـــال عمر : ذاك أبو الهيثم بريد الجن وسيجىء بريد الانسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس ، والذين يستخدمون الجن فى المباحات يشبه استخدام سليمان لكن أعطى ملكا لا ينبغى لأحد بعده وسخرت له الانس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره .

والنبي ﷺ (لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدى وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ثم ذكرت دعوة أخى سليمان فأرسلته . فلم يستخدم الجن أصلا لكن دعاهم إلى الايمان بالله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالانس .

والذى أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان فأنه استعمل الجن والانس فى عبادة الله وحده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولا على أن يكون نبياً ملكا ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الابرار أصحاب اليمين .

وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين فى الآيات

الخارقة ، وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين فى الاسلام جعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدى بمثلها .

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلابد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعارضه ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله . فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي كان معتاداً للناس ، قالوا إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة ، فهذه هي المعجزات عندهم وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة لكن أنكروا كرامات الصالحين وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبذة والحيل لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي قالوا فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحا بهذا الاجماع وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها ويناقضوا فى ذلك كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان وما يفعله الشياطين من العجائب وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ثم يقولون الولى إذا تولى لا يعترض عليه فمنهم من يراه مخالفا لما علم بالاضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك وفعل الفواحش والفحش والتفحش فى المنطق ، وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولى من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلا من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم .

ودخلت الشياطين فى أنواع من ذلك فتارة يأتون الشخص فى النوم يقول أحدهم أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لى وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لى ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ماألبسه فلايشك أن الصديق هو الذى جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام وتارة يقص شعره فى النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً وتارة يقول أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحى أو الميت فيأتونه فى صورة ذلك الشيخ وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكا تصور بصورته وجاءه ولا يعلم أن ذلك الذى تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركا وتارة يأتون إلى من هو خال فى البرية وقد يكون ملكا أو أميراً كبيراً ويكون كافراً وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه فى صورة انسى ويسقيه ويدعوه إلى الاسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويتوبه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول من أنت فيقول أنا فلان ويكون فى موضع .

كما جرى مثل هذا لى كنت فى مصر فى قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير إنى أنا هو وأخبر بذلك ملك ماردين وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا وكنت فى الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاؤا إلى دمشق كنت أدعوهم إلى الاسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل وأراد بذلك اكرامى ليظن ذاك أنى أنا الذى فعلت ذلك .

قال لى طائفة من الناس فلم لا يجوز أن يكون ملكا قلت لا إن الملك لا يكذب وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك .

وكثير من الناس رأى من قال إنى أنا الخضر وإنما كان جنياً ثم صار من

الناس من يكذب بهذه الحكايات انكاراً لها لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكلا الطائفتين مخطىء فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن اخطؤا فى ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ولهذا يجرى مثل هذا لليهود والنصارى فكثيراً ما يأتيهم فى كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم فى كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وفى ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصاً وظن إنه الخضر وإنه غلط فى ظنه إنه الخضر وإنما كان جنياً .

وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان فكل هذا قد وقع والنبى ﷺ قال (من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى) قال ابن عباس فى صورته التى كان عليها فى حياته وهذه رؤية فى المنام ، وأما فى اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتى .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور فى أناجيلهم وكلها تشهد بذلك وذاك الذى جاء كان شيطاناً قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ولكن ما أخبرهم المسيح قبل ان يرفع بتبليغه فهو الحق الذى يجب عليهم تبليغه ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه فى صورته عياناً وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقى بعد أن مات كان يأتى أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأرانى صادق من أصحابه الكتاب الذى أرسله فرأيته بخط الجن وقد رأيت خط الجن غير مرة وفيه كلام من كلام الجن وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حى وكان يقول إنتقل ثم مات ، وكذلك شيخ

آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو .

وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً فهذا باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ففي المشركين أكثر مما في النصارى وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً وقد قال النبي ﷺ (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم[١]) .

وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه .

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل

---

(١) الجملة الأولى رواها أحمد وغيره ، والثانية رواها النسائي وابن حبان

والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذباً ، وهذا كالرجل يسلم رغبة فى الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان فى قلبه ، فنفس ذل الكفر الذى كان عليه وانقهاره ودخوله فى حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذى كان فيه ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان فى قلبه

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها والنبى ﷺ دعا الخلق بغاية الامكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

وأكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل وبدعة ببدعة لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهى بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة وكلهم يتولون ابا بكر وعمر وعثمان وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ومنهم من يفضله على أبى بكر وعمر ، ولكن حكى عن بعض متقدميهم أنه قال فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ولا أعلم عينها وقالوا إنه قال لو شهد على والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ولو شهد على مع آخر ففى قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ، والذى عليه عامتهم تعظيم على .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبى موسى وعمرو بن العاص لأجل على ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة فإنهم يقولون أن هؤلاء تابوا من قتاله وكلهم يتولى عثمان ويعظمون ابا بكر وعمر ويعظمون الذنوب فهم يتحرون الصدق كالخوارج لا يختلقون الكذب كالرافضة ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الاسلام كالخوارج ولهم كتب

فى تفسير القرآن ونصر الرسول ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض وهم قصدهم اثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا فى بعض ما قالوه فى كل واحد من أصولهم الخمس فجعلوا من التوحيد نفى الصفات وانكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق، فوافقوا فى ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون، ويكون ما لا يشاء، وإنه لم يخلق أفعال العباد فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لإثبات العدل وجعلوا من الرحمة نفى أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة.

وكذلك هم والخوارج قالوا بإنفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه، وغلطوا فى فهم الوعيد. وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالسيف قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا فى ذلك وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها وغلطوا فيما سلكوه فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء.

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم وبينوا ما بينوه من تناقضهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير.

فإن الأشعرى كان من المعتزلة وبقى على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبى على الجبائى، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم، وأما ما بقى عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية، وأما خصائص المعتزلة فلم يوافقهم الأشعرى فى شىء منها بل ناقضهم فى جميع أصولهم ومال فى مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه.

وكثير من الطوائف كالنجارية أتباع حسين النجار والضرارية أتباع ضرار بن عمرو يخالفون المعتزلة فى القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها وكذلك يبالغون فى ذم النصارى أكثر مما يبالغون فى ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب . فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين . وروى بإسناد عن أبى روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه يقول فألهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم، يقول امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك ، قال ابن أبى حاتم ولا اعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين وقد قال سفيان ابن عيينة كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر فى العلم ودليله فيعظمون العلم وطريقه وهو الدليل والسلوك فى طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الارادة والمريد وطريق أهل الارادة ، فهؤلاء يبنون أمرهم على الارادة وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هى القوة العلمية ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعى فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون

أعمال القلوب وحقائقها . ومن جهة أن النظار لم يميزوا فيه بين النظر الشرعى الحق الذى أمر به الشارع وأخبر به وبين النظر البدعى الباطل المنهى عنه .

وكذلك الصوفية عظموا جنس الإرادة ، إرادة القلب وذموا الهوى وبالغوا فى الباب ولم يميز كثير منهم بين الارادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله وبين الارادة البدعية بل أقبلوا على طريق الارادة وأعرض كثير منهم عن طريق النظر فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم وأولئك يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأى وبين اهل التصوف والزهد تنافر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

﴿ فصل ﴾ فإن قيل فإذا كان فى كتب الأناجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم أنا المسيح ولا يقولون أن الشيطان تمثل على صورته فالشيطان ليس هو لحم وعظم وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام فأين الانجيل الذى قال الله عز وجل فيه (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) وقال قبل هذا (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وقد قال قبل هذا (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) وقال أيضاً (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال أيضاً (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين) .

وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهو من كان فى وقتهم ومن يأتى من بعدهم إلى يوم القيامة ، لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم وكذلك قوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) إخبار عن اليهود الموجودين وإن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ومن لا يؤمر على لسان محمد ﷺ .

قيل قبل هذا أنه قد قيل ليس فى العالم نسخة بنفس ما أنزل الله فى التوراة والانجيل بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواتره والانجيل إنما أخذت عن أربعة ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما فى التوراة أو الانجيل باطل ليس من كلام الله ومنهم من قال بل ذلك قليل ، وقيل لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب وإنما حرفوا معانيها بالتأويل . وهذان القولان قال كلا منهما كثير من المسلمين ، والصحيح القول الثالث وهو أن فى الأرض نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبي ﷺ ونسخاً كثيرة محرفة ومن قال أنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال مالا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فى التوراة والانجيل ، ويخبر أن فيهما حكمه وليس فى القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول هو سبحانه قال (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيـــه) وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حـــكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها فى التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام . ومعلوم أن هذا الذى فى التوراة والانجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك

للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ليس هو مما أنزله الله عليهما ولا هو مما أمرا به فى حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم ، وقوله ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأ كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فإن إقامة الكتاب العمل بما أمر الله به فى الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول ، وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ليس هو مما أنزله الله على الرسول ولا مما أمر به ولا أخبر به ، وقد يقع مثل هذا فى الكتب المصنفة يصنف الشخص كتاباً فيذكر ناسخه فى آخره عمر المصنف ونسبه وسنه ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن ، وأن لا يكتب فى المصحف غير القرآن فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة والتى كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفى المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء ، وكتب فى آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن .

فهكذا ما فى الانجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح ، وإنما هو مما رآه من بعده والذى أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام وهم الذين نقلوا عن المسيح الانجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

قيل الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة فى كلام الأنبياء ، وما سوى ذلك فموقوف على الحجة

إن كان حقا قبل وإلا رد ، ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والحديث يجب قبوله لا سيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنن . وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فإجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه رد إلى الله والرسول ، وعمر قد كان أولا أنكر موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث الذي رواه . وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ .

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإن الذي صلب إنما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً ، وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح ، وقد قيل أنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس ، والأول هو المشهور وعليه جمهور الناس وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعي أنه نبي أو صالح ويقول أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطانا ، وفي ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاء وقال أنا المسيح جئت لأهديك فعرف أنه الشيطان ، فقال أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن) ١٠٧ النساء وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ومن جوز قتله فهو كمن قتله ، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون ، وإذا قالوه فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر

لإستحلالهم ذلك وسعيهم فيه وقد قال النبي ﷺ إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا يارسول الله فما بال المقتول قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

وقوله (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) قيل هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين ، وقوله (لفى شك منه) قيل من قتله وقيل منه أى فى شك منه هل صلب أم لا كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر. وقالت النصارى إنه إله فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم فى شك من ذلك ما لهم به من علم .

فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح .

فإن قيل إن كان الحواريون الذين ادركوه قد حصل هذا فى إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) ٥٥ آل عمران وقوله (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

قيل ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح فى إيمانه إذا كان لم يحرف ماجاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح فى إيمانه فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له ، وقتل النبي لا يقدح فى نبوته وقد قتل بنو اسرائيل كثيراً من الأنبياء وقال تعالى (وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير) الآية وقال تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ١٤٤ آل عمران وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي ﷺ جاءهم فى اليقظة فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعا للسنة واتباعا لها وكان فى الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله فهذا غلط منه لا يوجب كفره فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه .

وعمر لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ، لم يكن هذا قادحا في إيمانه وإنما كان غلطا ورجع عنه .

﴿فصل﴾ وقوله تعالى في هذه (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم وكذلك قوله (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وكذلك قوله (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) وقوله (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون).

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن وكذلك قوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة) مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم وكذلك قوله (نبؤني بعلم إن كنتم صادقين) وقوله (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتواترة واجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين وإن لم يكن شهود حلف الخصم ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار .

والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك فلا يقطع به الإنسان بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام

لا بد فيها من هذا فإن دلالة العموم فى الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس وإن كان قوم نازعوا فى القياس فالفقهاء منهم لم ينازعوا فى خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع فى هذا وهذا لم ينازع فى العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع فى العموم والقياس منازع كبعض الرافضة مثل الموسوى ونحوه لم ينازع فى الأخبار ، فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الاثنى عشر ، فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغنى عن الظواهر والأخبار والأقيسة بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه، وهذا عمل بالظن والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوعت طرق الناس فى جواز هذا فطائفة قالت لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلا ، وقالوا إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون فى الظواهر بل يقولون نقطع بخطأ من خالفنا وننقض حكمه كما يقوله داود وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً .

وأما الاستصحاب ، والاستصحاب فى كثير من المواضع من أضعف الأدلة وهم فى كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ بل الظاهر خلافه فطائفة قالت لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم لا نعمل بالظن ، وهذه طريقة القاضى أبى بكر وأتباعه .

وهنا السؤال المشهور فى حد الفقه أنه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازى العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

﴿ فإن قلت ﴾ الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علما ؟

﴿ قلت ﴾ المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة فى مناط الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه فالعلم حاصل قطعا ، والظن واقع فى طريقه .

وحقيقة هذا الجواب أن هنا مقدمتين (إحداهما) أنه قد حصل عندي ظن ، والثانية قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن ، فالمقدمة الأولى وجدانية ، والثانية عملية استدلالية فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم لكن يقال العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب والا فالفقهاء لايتعرضون لهذا . فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه .

وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر ، وهو بناه على أصله فإنه عنده كل مجتهد مصيب ، وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب الإتفاق .

وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر كميل ذي الشدة إلى قول وذي اللين إلى قول ، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظنا في نفسه فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن .

وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول انكارا بليغا وهم معذورون في انكاره ، فإن هذا أولا مكابرة فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيأ على شيء .

والكلام في شيئين : في اتباع الظن ، وفي الفقه هل هو من الظنون :

أما الأول فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ويعمل بالراجح وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عنده أمر مقطوع به . وان قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد .

وأما اعتقاد الرجحان فقد يكون علماً وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان وإذا ظن الرجحان أيضاً فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم فلأن ينتهى الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن ، وهو اتباع الأحسن كما قال (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) وقال (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين وحينئذ فما عمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصرى وأبى وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه إلى علم ، فإن هذا أرجح من غيره كما قال (ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن) وقال (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن) .

وهكذا فى سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن فعندهم ظن مجرد لا علم معه وهم يتبعونه والذى جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعملون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت فى نفس الأمر وهذا كما ذكر النبى ﷺ حيث قال ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع .

فإذا أتى أحد الخصمين بحجة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح فما حكم إلا بعلم لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه وله بينة تشهد بذلك وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يحسن أن يتكلم بذلك فيكون هو المضيع بحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام فإذا تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل وهذا معلوم لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عداله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يزك الآخر . فهذا المزكى أرجح وإن جاز أن يكون فى نفس الأمر قول الآخر هو الحق . لكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو علمه برجحان هذا على هذا ليس ممن لم يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث وفى تزكية هذا الشاهد ، فإن المرسل قد يكون راويه عدلا حافظاً كما قد يكون هذا الشاهد عدلا ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوى لكن معنا عدم العلم بعدالتهما وقد لا يعلم عدالتهما مع تقويتها ورجحانها فى نفس الأمر .

فمن هنا يقع الخطأ فى الاجتهاد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكانه ثبوته فى نفس الأمر ، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذى علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته فإنهما إذا تعارضا وكانا متناقضين فإثبات أحدهما هو نفى الآخر ، فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفى ذلك وذلك المجهول بالعكس ، فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته .

ولكن قد يقال أنه لا يقطع بثبوته وقد قلنا فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم . والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا .

وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن لكن لم يكن ممن قال الله فيه إن يتبعون إلا الظن بل هنا ظن رجحان هـذا وظن رجحان ذاك وهذا الظن هو الراجح ورجحانه معلوم فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد فى جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغير ذلك .

وأما الجواب عن قولهم : الفقه من باب الظنون فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله (فإن علمتموهن مؤمنات)

والتحقيق أن عنه جوابين (أحدهما) أن يقال جمهور مسائل الفقه التى يحتاج اليها الناس ويفتون بها هى ثابتة بالنص أو الاجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع فى قليل مما يحتاج اليه الناس وهذا موجود فى سائر العلوم وكثير مسائل الخلاف هى فى أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما ما لابد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ولا احترز بهذا القيد أحد الا الرازى ونحوه وجميع الفقهاء يذكرون فى كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة وتحريم الخمر والفواحش وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة

وأيضا فكون الشيء معلوما من الدين ضرورة أمر إضافى فحديث العهد بالاسلام ومن نشأ ببادية بعيـــدة قد لا يعلم هذا بالكلية فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد للسهو وقضى بالدية على العاقلة ، وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة

الجواب الثانى أن يقال الفقه لا يكون فقها الا من المجتهد المستدل وهو قد علم ان هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل وهذا الظن ليس الفقه قطعه بوجوب العمل أى بما أدى اليه اجتهاده بل هذا القطع من أصول الفقه والأصولى يتكلم فى جنس الأدلة ويتكلم كلاماً كلياً فيقول يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ، ويقول أيضاً إذا تعارض العام والخاص ، فالخاص أرجح وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ، ويقول أيضاً العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه فيتكلم فى دليل معين فى حكم معين مثل أن يقول قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) ٥ المائدة ، خاص فى أهل الكتاب ومتأخر عن قوله (ولا تنكحوا المشركات) ٢٢١ البقرة وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر فيكون ناسخاً ومخصصاً فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً وهذا الفقه الذى يختص به الفقيه وهو علم قطعى لا ظنى ، ومن لم يعلم كان مقلدا للأئمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه ، ولهذا قال المستدل على أعيانها والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسؤل عنه وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له وإذا قيل له فقد قال (ولا تمسكوا بعصم الكوافر)

قال هذا نزل عام الحديبية والمراد به المشركات فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك فهى خاص متأخر، وذاك عام مقـــدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم ولهذا لما نزل قوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) ١٠ الممتحنة فارق عمر امرأة مشركة وكذلك غيره فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ، فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة وآية المائده بعد آية البقرة ، فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل وظن على دليل ، وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذى لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه وذلك هو الذى ذم الله به من قال فيه (إن يتبعون إلا الظن) فهم لا يتبعون إلا الظن ليس عندهم علم ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علما ، لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ فههنا ثلاثة أشياء (أحدها) الظن الراجح فى نفس المستدل المجتهد والثانى الأدلة التى يسميها بعض المتكلمين أمارات التى تعارضت وعلم المستدل بأن التى أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

الثالث أنه قد يكون فى نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع فى عامة موارد الاجتهاد فإن الرجل قد يسمع نصا عاما كما سمع ابن عمر وغيره أن النبى ﷺ نهى عن قطع الخفين وأنه أمر أن لايخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبي ﷺ نهى عن لبس الحرير وظاهره العموم ، وهذا راجح على الاستصحاب النافى للتحريم : فعملوا بهذا الراجح وهم يعلمون قطعا أن النهى أولى من الاستصحاب .

لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى مالم يعلموه فكانوا يفتون بأن الحائض عليها الوداع وعليها قطع الخفين وأن قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة وكان فى نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص فى موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير كما بين ذلك فى الصحيح فى رواية عمر ، ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان له جبة مكفوفة بالحرير ، فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلموا حينئذ أنه كان فى نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذى يستصحبوه ولم يعلموا به ، وهم فى الحالين إنما حكموا بعلم ، لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن فإنهم أولا رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم فإن هذا راجح بلا ريب ، والشرع طافح بهذا .

فما أوجبه الله أو حرمه كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما هى نصوص عامة وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة وهى راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح

ذلك فقد حكم بعلم وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء النصوص

وهذا القول فى سائر الأدلة مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوخة ولم يبلغه الناسخ كالذين نهوا عن الانتباذ فى الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ مثل من كان من المسلمين بالبوادى وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين بعضها إلى هذه القبلة وبعضها إلى هذه القبلة لما بلغهم النسخ وهم فى أثناء الصلاة فاستداروا فى صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضى أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون فى الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه يقولون ما ثم إلا الظن الذى فى نفس المجتهد والامارات لا ضابط لها ، وليست أمارة أقوى من أمارة فانهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذى عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً ، وعندهم ليس فى نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون بل الامارات بعضها أقوى من بعض فى نفس الأمر ، وعلى الانسان أن يجتهد ويطلب الأقوى فاذا رأى دليلا أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان فى الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه .

فإذا أريد بالخطأ الاثم فليس المجتهد بمخطىء بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران كما فى المجتهدين فى جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات

فالذى أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده ، وعمله كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ومن زاده الله علماً وعملا زاده أجراً بما زاده من العلم والعمل قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) ٨٣ الأنعام قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم وكذلك قال فى قصة يوسف (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) ٧٦ يوسف .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم واتبعوا العلم وان الفقه من أجل العلوم وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر كما قال تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) ٧٨ الأنبياء .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال فى الأصول والفروع ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين قسمين أصولا وفروعاً لم يكن معروفاً فى الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذى استفرغ وسعه فى طلب الحق يأثم لا فى الأصول ولا فى الفروع ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة . وأدخله فى أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبرى انه قال كل مجتهد مصيب ومراده إنه لا يأثم .

وهذا قول عامة الأئمة كأبى حنيفة والشافعى وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزماً لإثمهما لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة فاذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعاً له من إظهار البدعة ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره

وكذلك قال الخرقي ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكر أعاد وبسط هذا له موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطاً يميز بين النوعين بل تارة يقولون هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسائل الأحكام قطعي ، وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس فان كون الشيء قطعيا وظنيا أمر إضافي ، وتارة يقولون الأصول هي العلميات الخبريات ، والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتارة يقولون هذه عقليات وهذه سمعيات وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطيء فإن الكفر حكم شرعي يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وإذا تدبر الانسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كما في مسائل الأحكام ، مثال ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ومسائل الأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ، ويتبرؤن ممن خالفهم فيها ، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه وطاعة أمره ، لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم ، وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم كأبي الحسن الأشعري وأصحابه فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة وكان عندهم علم ليس عند أولئك وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء وكل من الطائفتين لم تحط علما بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ، بل علموا بعضا وجهلوا بعضا .

فإن هؤلاء المجبرة هم في الحقيقة لا يثبتون لله عدلا ولا حكمة ولا رحمة ولا صدقا فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور ، أما العدل فعندهم(١) كل ممكن فهو عدل والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثَم(٢) عدل يقصد فعله وظلم

---

(١) أي عند المجبرة (٢) بفتح الثاء أي هناك .

يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحاً . ويقولون القبيح هو ما نهى عنه وهو لا ناهي له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكراً وشركا ، والنهي عن كل شيء وإن كان توحيداً ومعروفاً فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقاً بين المعجزات وغيرها ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نقضوا أصلهم وقد قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) ١٨ آل عمران وعندهم هذا لا فائدة فيه فليس في الممكن قسط وجور حتى يكون قائماً بهذا دون هذا وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل لحكمة وقد فسروا الحكمة إما بالعلم وإما بالقدرة وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيما ويكون غير حكيم . كذلك المريد قد يكون إرادته حكمة وقد يكون سفها ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم وكذلك الرحمة ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وتبين تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ومع نفي الحكمة وتبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم فإن الرازي ذكر في المطالب العلية مسئلة الإرادة ورجح فيها نفي الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي عليلا ولا تروي غليلا .

وقال قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا

ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى الإثبات (الرحمن على العرش استوى ، إليه يصعد الكلم الطيب) واقرأ فى النفى ليس كمثله شىء ولا يحيطون به علماً ، ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى

فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته وكذلك الصدق فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم فقالوا الصدق فى الكلام النفسانى واجب لأنه يعلم الأمور ، ومن يعلم يمتنع أن يقوم فى نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالى وغيره فقيل لهم هذا ضعيف لوجهين : أحدهما الصدق فى ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق فى العبارات الدالة عليه ويتميز بين الأفعال عندهم (الثانى) أنهم أثبتوا الخبر النفسانى فإن الانسان يخبرك بالكذب فيقوم فى نفسه معنى ليس هو العلم وهو معنى الخبر فهذا يقتضى أنهم يقولون أن العلم قد يقوم فى نفسه خبر بخلاف علمه .

والرازى لما ذكر مسئلة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعنى به شيئاً خلافاً للحشوية (١) قيل له هل قال أحد من طوائف الأمة أن الله لا يعنى بكلامه شيئاً . وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه وقيل لهم هب أن فى هذا نزاعا فهو لم يقم دليل على امتناع ذلك . بل قال هذا عيب أو نقص والله منزه عنه فقيل له إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة ، أما الأول فلا يجوز إرادته هنا لأن المسئلة هى فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ولا يعنى به شيئا ، وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ويجوز عندك أن يخلق كل شىء ليس منزها عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو مالا تريده فهذا ممتنع .

فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ولا على تنزيهه عن العيب فى خطابه فإن ذلك إنما يكون ممن تنزيهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ولا رحمته ولا صدقه والمعتزلة قصدهم إثبات هذه الأمور ،

---

(١) فرقة .

ولهذا يذكرونها في خطبة الصفات كما يذكرها أبو الحسين البصري وغيره كما ذكر في أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون وإنه بالناس لرؤف رحيم ، وأظن فيها إثبات صدقه ولهذا يكفرون من يجوره أو يكذبه أو يسفهه أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة كما قد نبه على هذا في غير موضع .

فكلا الطائفتين معها حق وباطل ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين قال تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ١١٨ هود

﴿فصل﴾ والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات وابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم أثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ١٠٥ التوبة فأثبت رؤية مستقلة وكذلك قوله تعالى (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ١٤ يونس ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته فإن المعتزلة والجهمية يقولون خلق نداء في الهواء والكلابية والسالمية (١) يقولون النداء قام بذاته وهو قديم لكن

---

(١) الكلابية : بضم الكاف وتشديد اللام هم أتباع عبد الله بن سعيد أبو محمد بن كلاب القطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠ بقليل عده الأشعري وابن طاهر البغدادي من متكلمي أهل السنة وقال عنه ابن حزم في الفصل أنه شيخ قديم للأشعرية :

السالمية : هم أتباع أبي محمد عبد الله محمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ وقد =

سمعه موسى فاستجدوا سماع موسى وإلا فما زال عندهم مناديا

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا ، وتبين أنه ناداه حين جاء وأنه يتكلم بمشيئته فى وقت بكلام معين كما قال (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وقال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل وأما الأحاديث فلا تحصى وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ولهذا قال عبد الله بن المبارك والامام أحمد ابن حنبل وغيرهما لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال هو قديم لم يزل ، والذين قالوا من المتأخرين هو قديم كثير منهم من لم يتصور المراد بل منهم من يقول هو قديم فى علمه ومنهم من يقول قديم أى متقدم الوجود ، متقدم على ذات زمان المبعث لا أنه أزلى لم يزل ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع

والمقصود هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده وكان ذلك بمشيئته وقدرته إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء فى القرآن والسنة فى غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر (١) وكذلك فى الاستماع قال تعالى وأذنت لربها وحقت اى استمعت وقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء كاذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن

= تتلمذ على سهل بن عبد الله التسترى وأبى طالب المكى وأبى الحكم بن برجان من أشهر رجال السالمية . وهم يجمعون فى مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية اه منهاج السنة ص١٠٧ ج١ هامش

(١) رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة

يجهر(١) به) وقال (لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته)(٢) فهذا تخصيص بالاذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض وكذلك سمع الإجابة كقوله سمع الله لمن حمده وقول الخليل (إن ربى لسميع الدعاء) ابراهيم ٢٩ . وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب سبأ : ٥٠ ، يقتضى التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت فى الكتاب والسنة وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته وتخصيص من يحب ومحبته بالنظر والاستماع المذكور يقتضى إن هذا النوع منتف عن غيرهم .

لكن مع ذلك هل يقال إن نفس الرؤية والسمع الذى هو مطلق الادراك هو من لوازم ذاته فلا يمكن وجود مسموع ومرئى إلا وقد تعلق به كالعلم أو يقال إنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض المخلوقات ؟ هذا فيه قولان ، والأول قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون متى وجد المرئى والمسموع وجب تعلق الادراك به .

(والقول الثانى) إن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف كما روى ابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى قال ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ، ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم .

وقد يقال هذا مثل الذكر والنسيان فإن الله تعالى قال (اذكرونى أذكركم) وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن فضاله بن عبيد

تقرب ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ، فهذا الذكر يختص بمن ذكره فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ومثله قوله (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم) .

وقد فسروا هذا النسيان بأنه (إعراض) وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال أفظننت أنك ملاقي قال لا ، قال فاليوم أنساك كما نسيتني ، فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

(فصل) في جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والايمان فيصدق بأنه حق وصدق وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فان وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

والعلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول لكن في أمور دنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة وأما الأمور الالهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها وأرغبهم في تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والارادة . وهذه الثلاثة

بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون فى علمه بهـــا نقص أو فساد وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

وبيان الرسول على وجهين ، تارة يبين الأدلة العقلية الدالة عليها والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الالهية والمطالب الدينية ، وتارة يخبر بها خبراً مجرداً لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلغ عن الله وأنه لا يقول عليه إلا الحق وإن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه ، والأدلة التى بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة وهى أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل وهى أيضاً شرعية سمعية لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد إليها وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية فى المطالب الدينية وهم يذكرون ذلك فى كتبهم الأصولية وفى كتب التفسير وعامة النظار أيضاً يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة عن المطالب الدينية فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

والعلوم ثلاثة أقسام منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية وأحسن الأدلة العقلية التى بينها القرآن وأرشد إليها الرسول ، فينبغى أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح فى الدلائل العقلية مطلقا لأنه قد صار فى ذهنه أنها هى الكلام المبتدع الذى أحدثه فريق من المتكلمين ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه لأنه قد صار فى ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء وخبرهم المجرد هو دليل سمعى مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الالهية والملائكة والعرش والجنة

والنار وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه

فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته ورحمته ونحو ذلك فهذا يعلم بالأدلة العقلية وإن كانت الأدلة والآيات التى يأتى بها الأنبياء هى أكمل الأدلة العقلية لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد وإن كان أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقينى أيضا فيعلم بالأدلة العقلية التى أرشدوا اليها ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التى دلت على صدقهم .

وقد تنازع الناس فى العلم بالمعاد وبحسن الأفعال وقبحها فأكثر الناس يقولون إنه يعلم بالعقل مع السمع والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين أن المعاد يعلم بالعقل قال أبو الخطاب هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر ، وهو قول الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى الجوينى وأبى الوليد الباجى وغيرهم وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذى هو مجرد الخبر مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك ، وكتب أصـــول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية .

لكن الرازى طعن فى ذلك فى المطالب العالية قال لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلى ، فإذا عارضه العقلى وجب تقديمه عليه ، قال والعلم بانتفاء المعارض العقلى متعذر وهو إنما يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هـذه طريقة أئمة الواقفة فى الوعيد كالأشعرى والقاضى أبى بكر وغيرهما وليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا فى اخبار الوعيد خاصة لأن العموم عندهم لا يفيد القطع أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة وإلا فهم يثبتون الصفات الخبريه لله كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف

قول الأشعرى فى ذلك وهو قول أئمة أصحابه لكن أبو المعالى وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية بل فيهم من ينفيها ومنهم من يقف فيها كالرازى والآمدى .

فيمكن أن يقال قول الاشعرى ينزع من قول هؤلاء بأن يقال لايعرف أنهم اعتمدوا فى الاصول على دليل سمعى ، لكن يقال المعاد يحتجون عليه بالقرآن والاحاديث ولكن الرازى هو الذى سلك فيه طريق العلم الضرورى إن الرسول جاء به ، وفى الحقيقة فجميع الأدلة اليقينية توجب علما ضروريا ، والادلة السمعية الخبرية توجب علما ضروريا بأخبار الرسول لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الاخبار المتواترة ويحصل به علم ضرورى من غير تعيين دليل ، وقد يعين الادلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الالهية الدينية سمعيها وعقليها ، ويجعل ماجاء به هو الاصول لدلالة الادلة اليقينية البرهانية على أن ماقاله حق جملة وتفصيلا ، فدلائل النبوة وأعلامها تدل على ذلك جملة وتفاصيل الادلة العقلية الموجودة فى القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلا

وأيضا فإن الانبياء والرسل انما بعثوا بتعريف هذا فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه ، وأيضا فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم والخطأ مع مخالفيهم كماقال الرازى مع انه من أعظم الناس طعنا فى الأدلة السمعية حتى ابتدع قولا ماعرف به قائل مشهور غيره وهو أنها لاتفيد اليقين ومع هذا فانه يقول لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولاتروى غليلا ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ فى الأثبات اليه يصعد الكلم الطيب الرحمن على العرش استوى واقرأ فى النفى ليس كمثله شىء ولا يحيطون به علما قال ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى

وأيضا فمن اعتبر ماعنـــد الطوائف الذين لم يعتصموا بتعليم الانبياء وارشادهم واخبارهم وجدهم كلهم حائرين ضالين شاكين مرتابين أو جاهلين جهلا

مركبا فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) ٢٩ النور

(فصل) وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وهم كما قال مجاهد أهل البدع والشبهات يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل كما قال فيهم الامام أحمد قال : هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب، يحتجون بالمتشابه من الكلام ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموافقة من أهل الضلال تجعل لها دينا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجوا به اعتقادا لا اعتمادا وان خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله وهذا فعل أئمتهم وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه إلى الله وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ماجاء به الرسول يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب وليس له علم بالمعقول ولا بالاصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذى يخالفها من المتشابه الذى لا يعرف معناه إلا الله أولا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقا لهم على ذلك القول . وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب ويترك المحكم كالنصارى والخوارج وغيرهم إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما ، وجعلوا المحكم متشابها ، وأما أولئك كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم وكالفلاسفة فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذى يجب اتباعه وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ويجعلون ما جاءت به الأنبياء وإن كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه .

ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع حتى قال يوسف ابن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد أن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين وسبعين فرقة قالوا وأصولها أربعة الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية ، وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فى المتشابهات قولان (أحدهما) أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

والثانى وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ولكن ثم آيات محكمات لا يتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة بل القول كله محكم كما قال (أحكمت آياته ثم فصلت وهذا كقوله (الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس) (١) وكذلك قولهم (إن البقر تشابه علينا) وقد صنف أحمد كتاباً فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء فى تفسيرها مثل الآيات التى سأل عنها نافع بن الأزرق لابن العباس ، قال الحسن البصرى ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة ومجىء أشراطها ، ومثل كيفية نفسه وما أعده فى الجنة لأوليائه .

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله إنا ونحن ، وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذى له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذى هو تفسيره يعلمه الراسخون ويفرقون بين ما قيل فيه أنا وما قيل فيه إنا لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه

---

(١) رواه البخاري ومسلم

إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ولهذا لا يقول فإيانا فاعبدوا ولا إيانا فارهبوا بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص . وإذا ذكر الأفعال التى يرسل فيها الملائكة قال (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم لا يعلمه إلا الله كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله إما العقلى وإما الخبرى السمعى ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التى قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد .

وهذا مثل لفظ المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ولفظ الحيز ونحو ذلك فإن من هذه الألفاظ ما لا يوجد فى الكتاب والسنة بالمعنى الذى يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا فى اللغة أيضاً بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعانى بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعانى بعبارات أخرى ويبطن ما دل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك فى إحدى المقدمتين بمعنى ، وفى المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو فى صورة اللفظ دليل ، وفى المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها ، والذى قال :

* أيها المنكح الثريا سهيلا *

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل ثم قال .

* عمرك الله كيف يلتقيان *

هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك لمجمل تعجبه وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة فى غير موضع .

والأصل الذى بنى عليه نفاة الصفات وعطلوا ما عطلوه حتى صار منتهاهم إلى قول فرعون الذى جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى فى أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الاجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم . وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة فى ذم الجهمية وفى ذم هؤلاء المتكلمين .

والسلف لم يذموا جنس الكلام فإن كل آدمى يتكلم ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذى أمر الله به رسوله (١) والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاما هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل .

فالكلام الذى ذمه السلف هو الكلام الباطل وهو المخالف للشرع والعقل ولكن كثير من الناس خفى عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل حتى اعتقد أن إبراهيم الخليل استدل به . ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الإيمان أولا يتم إلا به . ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ؛ فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل . لكنه طويل او يبعد المعرفة أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ،

---

(١) فى قوله تعالى : وجادلهم بالتى هى أحسن .

فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة ، وأنه صحيح فى نفسه ، وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس فى الوجود قديم ، وهذا مكابرة فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث وإما قديم ، والحادث لا بد له من قديم فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ما ابتدعه فى هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك كما قد بسط ذلك فى غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس فى الوجود موجود بنفسه مع أنهم جعلوا هذا طريقا لإثبات الواجب بنفسه كما يجعل أولئك هذا طريقا لإثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب ، فليس فى واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهــذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هــو العالم بنفسه ، وقالوا هو الله وأنكروا أن لا يكون العالم رب مباين للعالم إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لابد منـــه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هـــذا الوجود المشهود . فلهذا كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب لكنهم لا يعرفون ان هذا يلزمهم بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه

ولكن وصفوه بصفات الممتنع فقالوا لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو صفة ولا موصوف ولا يشار اليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التى تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ويعرف أن هذا صفة المعدوم

الممتنع لاصفة الموجود ، فدليلهم فى نفس الامر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب ولكن ظنوا انهم أثبتوا القديم والواجب

وهذا الذى أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ولا بد من اثبات القديم والواجب فقالوا هو هذا العالم فكان قدماء الجهمية يقولون انه بذاته فى كل مكان وهؤلاء قالوا هو غير الموجودات والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممكن والحلول هو الذى أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه ، وأما حقيقة قولهم فهو النفى أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية انه فى كل مكان ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام

جهمية الاوصاف الا أنها ٭ قد حليت بمحاسن الاشياء

وهم لم يقصدوا نفى القديم والواجب ، فان هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله فانه اذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم ، لزم ان كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول ان الحادث لا يحدث بنفسه ولهذا قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ٣٠ ـ الطور وقد قيل خلقوا من غير شىء من غير رب خلقهم ، وقيل من غير مادة وقيل من غير عاقبة وجزاء ، والاول مراد قطعاً فان كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من ان كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فان كثيراً من العقلاء نازع فى هذا وهذا . ولم ينازع فى الاول طائفة قالت إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه بل من الطوائف من قال انه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، وإما أن يقول انه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة ، وانما يحكى عمن لا يعرف

ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله من حصل له فساد فى عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس وفى بعض الامور ولكن أمة من الامم كلهم سوفسطائية فى كل شىء ، هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الامم انهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث

وهؤلاء لما اعتقدوا ان كل موصوف أو كل ماقامت به صفة أو فعل بمشيئته فهو محدث وممكن ، لزمهم القول بحدوث كل موجود إذكان الخالق جل جلاله متصفا بما يقوم به من الصفات والامور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ويخلق مايخلقه بمشيئته وقدرته لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه لاعتقادهم صحة القول بأن ماقامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لان ذلك لايخلو من الحوادث ، ومالم يخل من الحوادث فهو حادث ، واذا كان حادثا كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب ، وانه ذات مجردة عن الصفات ووجوده مطلق لايشار اليه ولا يتعين ، ويقولون هو بلا اشارة ولا تعيين

وهذا الذى أثبتوه لا حقيقة له فى الخارج ، وانما هو فى الذهن فكان ماأثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق فى الاذهان لافى الاعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، فجاء اخوانهم فى أصل المقالة وقالوا هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات هو الوجود السارى فى الموجودات فقالوا بحلوله فى كل شىء ، وقال آخرون منهم هو وجود كل شىء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ، ومنهم من فرق بين التعيين والاطلاق ، ومنهم من جعله فى العالم كالمادة فى الصورة ومنهم من جعله فى العالم كالزبد فى اللبن ، وكالزيت والشيرج فى السمسم والزيتون ، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع

والمقصود هنا أن الأصل الذى أضلهم قولهم ماقامت به الصفات والافعال والامور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ثم قالوا والجسم لايخلو من الحوادث ، وأثبتوا ذلك بطرق منهم من قال لايخلو عن الاكوان الاربعة الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، ومنهم من قال لايخلو عن الحركة

والسكون فقط ، ومنهم من قال لا يخلو عن الأعراض ، والأعراض كلها حادثة وهى لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدى وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازى اعتمد على طريقة الحركة والسكون ، وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه وذكرنا فى ذلك كلامهم هم أنفسهم فى فساد جميع هذه الطرق وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وإمكانه وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وأما الهشامية (١) والكرامية وغيرهم ممن يقول بأنه جسم قديم فقد

---

(١) الهشامية : قال الامام الشهرستانى فى الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٤ وما بعدها ما ملخصه :

هم أصحاب الهشامين : هشام بن الحكم صاحب المقالة فى التشبيه ، وهشام ابن سالم الجواليقى الذى نسج على منواله فى التشبيه .

وقال هشام بن سالم : إنه تعالى على صورة إنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت وهو نور ساطع يتلألأ وله حواس خمس .

وقال فى شرح الأصول الخمس لقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد ص١٨٣ وهامشها وعند هشام بن الحكم أن الله تعالى عالم بعلم محدث . وعرفه بقوله هو من غلاة الشيعة متوفى سنة ٢٧٩ .

والكرامية هم أتباع محمد بن كرام أبو عبد الله السجستانى المتوفى فى القدس سنة ٢٥٥ هـ .

والكرامية يوافقون السلف فى إثبات الصفات ولكنهم يبالغون فى ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم وهم يوافقون السلف أيضاً فى إثبات القدر والقول بالحكمة ولكنهم يوافقون المعتزلة فى وجوب معرفة الله تعالى بالعقل وفى أن العقل يحسن ويقبح قبل الشرع كما يعدهم الأشعرى وابن حزم من المرجئة لقولهم الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب اهـ منهاج السنة النبوية .

شاركوهم فى أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ولا قالوا أن التجسم لا ينفك عن الحوادث إذ كان القديم عندهم جسما قديما وهو خال من الحوادث . وقد قيل أول من قال فى الإسلام أن القديم جسم هو هشام ابن الحكم كما أن أول من أظهر فى الإسلام نفى الجسم هو الجهم بن صفوان ، وكلام السلف والأئمة فى ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض الجسم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وإسحق ابن راهويه وغيرهما قالوا المشبهة الذين يقولون بصر كبصرى ويد كيدى وقدم كقدمى ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التى لا تثبت بمشيئته وقدرته فينفونها قالوا لأنها حادثة ، ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً لأن ما قبل الشىء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

ومحمد بن كرام فكان بعد ابن كلاب فى عصر مسلم بن الحجاج أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يمتنع أنه كان فى الأول متكلما بمشيئته وقدرته لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف أنه لم يزل متكلما إذا شاء بل قال إنه صار يتكلم بمشيئته وقدرته كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك .

وقال هو وأصحابه فى المشهور عنه أن الحوادث التى تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلا لحدوثها وزوالها وإذا كان قابلا كذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ، ولا يلزم من ذلك أنها لم تخل منه كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلا لها ، والحدوث عندهم غير الإحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محدث ، لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث .

وهم إذا قالوا كان خالياً منها فى الأزل وكان ساكنا ، لم يقولوا أنه قام به حادث بل يقولون السكون أمر عدمى كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر

وجودي بخلاف ما يقوله من المعتزلة والأشعرية أن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به ، وهذا ممتنع ، وهم يقولون أنه يمتنع عدم الجسم .

وعندهم أن البارى يقوم به إحداث المخلوقات وإفناؤها ، فالحوادث التى تقوم بهم تقوم به لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء فكان قابلا لأن يحدث فيه حادث ويفنى ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء ، فلم يخل من الحوادث ، وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلابية .

لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر ، وهؤلاء يقولون السكون ليس بضد وجودى بل هو عدمى . وإنما الوجودى هو الإحداث والافناء ، فلو قبل قيام الاحداث والافناء به لكان قابلا لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم كما ذكر ذلك أبو المعالى وأتباعه ، وكما ذكر الآمدى تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت فى غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول أنه تقوم به الحوادث وتزول وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم فى ذلك قولان وإلا فالقول بفناء الصوت الذى كلم به موسى من جنس القول بقدمه كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول أنه كلم موسى بصوت سمعه موسى وذلك الصوت قديم ، وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هى أقوال يعرف فسادها بالبديهة .

وإنما أوقع هذه الطوائف فى هذه الأقوال ذلك الأصل الذى تلقوه عن الجهمية وهو أن مالم يخل من الحوادث فهو حادث وهو باطل عقلا وشرعا ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعمل والشرع ؛ وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية : فلا للإسلام نصروا ، ولا لعدوه كسروا ، بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا العقل والشرع وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة والدهرية والملاحدة بسبب غلطهم فى هذا الأصل الذى جعلوه أصل دينهم : ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيعوا الأصول فحرموا الوصول ؛ والأصول اتباع ما جاء به الرسول

وأحدثوا أصولا ظنوا أنها أصول ثابتة وكانت كما ضرب الله المثلين : مثل البناء والشجرة فقال فى المؤمنين والمنافقين (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) ٩ ا التوبة وقال (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ٢٤ إبراهيم والاصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ولهذا يقال فيه الاصل ما ابتنى عليه غيره أو ما يفرع عنه غيره

فالاصول الثابتة هى أصول الانبيا كما قيل

أيها المقتدى لتطلب علما * كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كى تصحح حكما * ثم أغفلت أصل أصل الاصول

والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وهذه الاصول ينبنى عليها ما فى القلوب ويتفرع عليها وقد ضرب

الله مثل الكلمة الطيبة التى فى قلوب المؤمنين ومثل الكلمة الخبيثة التى فى قلوب الكافرين

والكلمة هى قضية جازمة وعقيدة جامعة ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الاولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة فى قلوب المؤمنين وهى العقيدة الايمانية التوحيدية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فأصل أصول الايمان ثابت فى قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها فى السماء (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ١٠ فاطر والله سبحانه مثل الكلمة الطيبة أى كلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت فى قلب المؤمن ، ولها فرع عال وهى ثابته فى قلب ثابت كما قال (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والايمان فى قلبه ثابت مستقر ، وهو فى نفسه ثابت على الايمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض استوصلت واجتثت كما يقطع الشىء يجتث من فوق الارض مالها من قرار لا مكان تستقر فيه ولا استقرار فى المكان ، فان القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى (بئس القرار) وقال (جعل لكم الارض قرارا) ويقال فلان ماله قرار أى ثبات ، وقد فسر القرار فى الآية بهذا وهذا

فالمبطل ليس قوله ثابتا فى قلبه ولا هو ثابت فيه ولا يستقر كما قال تعالى فى المثل الآخر فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض) ١٧ الرعد فانه وان اعتقده مدة فانه عند الحقيقة يخونه كالذى يشرك بالله فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله ، وكذلك الافعال الباطلة التى يعتقدها الانسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه بل هى كالشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الارض مالها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع فى السماء يوصله إلى الله ، فانه سبحانه اليه يصعد الكلم الطيب

والعمل الصالح يرفعه ، ومن لم يكن معه أصل ثابت فانه يحرم الوصول لانه ضيع الاصول . ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ١٤ الرعد

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لاشريك له ، وانما يعبد بما أمر به على ألسن رسله

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه فى كتابه وما وصفه به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف انهم يصفون الله بما وصف به نفسه وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل والذين ينكرون بعض ذلك ماقدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة (ما قدروا الله حق قدره) فى ثلاث مواضع ليثبت عظمته فى نفسه وما يستحقه من الصفات وليثبت وحدانيته وانه لا يستحق العبادة إلا هو وليثبت ما أنزله على رسله فقال فى الزمر (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية وقال فى الحج (ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره) وقال فى الانعام (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء)

والمواضع الثلاثة ذم للذين ماقدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على انه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته وأن يجاهد فيه حق جهاده قال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده)وقال(اتقوا الله حق تقاته) والمصدر هنا مضاف إلى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به ، وحق تقاته التى أمركم بها ، واقدروه قدره الذى بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر ، وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه قالت عائشة فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

ودلت الآية على أن له قدراً عظيما لا سيما قوله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وفى تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقا لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية.

وعن ابن عباس قال مر يهودى بالنبي ﷺ فقال يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه والأرض على ذه والجبال والماء على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبي الضحى عن ابن عباس ، وقال غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضى أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر ، فإن الذى فى الآية أبلغ كما فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض وفى الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الملوك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى .

وقد روى ابن حاتم حدثنا أبي ثنا عمر بن رافع ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود فى صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فجعل صفته التى وصفوا بها شركا .

وقال حدثنا أبى ثنا أبو نعيم ثنا الحكم يعنى أبا معاذ بن الحسن قال عمدت اليهود فنظروا فى خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخــــذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه (وما قدروا الله حق قدره) وهذا يدل على انه أعظم مما وصفوه وانهم لم يقدروه حق قدره .

وقوله (عما يشركون) فكل من جعل مخلوقا مثلا للخالق فى شىء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك ، سوى بين الله وبين المخلوق فى شىء من الأشياء ، فعدل بربه والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمى له ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشرك .

والله ثنى قصة فرعون فى القرآن فى غير موضع لاحتيــــاج الناس إلى الاعتبار بها فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والالهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى . وليس لله صفة يماثله فيهـــــا غيره ، فلهذا لم يجز أن يستعمل فى حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذى يستوى أفراده ، فإن ذلك شرك إذ سوى فيه بالمخلوق بل قياس الأولى فانه سبحانه له المثل الأعلى فى السموات والأرض ، فهو أحق من غيره بصفات الكمال وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص وقد بسطت هذه الأمور فى غير هذا الموضع .

وبين ان من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتاً مجردة ، فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات الذهنية وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بذلك حدوث شىء كما قد بين فى موضعه .

ثم انهم جعلوا عمدتهم فى تنزيه الرب عن النقائص على نفى الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شىء من النقائص البته فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو فى نفس تلك الصفة ، فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له:

القول فى هذه الصفة التى ينفيها كالقول فيما أثبته فان كان هذا تجسيما وقولا باطلا فهذا كذلك ، وان قلت أنا أثبت هذا على الوجه الذى يليق بالرب قيل له وكذلك هذا كذلك ، وان قلت أنا أثبته وأنفى التجسيم ، قيل ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين

وان كان ممن يثبت الاسماء وينفى الصفات كالمعتزلة قيل له فى الصفات ما يقوله هو فى الاسماء ، فاذا كان يثبت حيا عالما قادرا وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسما كان اثبات ان له علما وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك ، وان كان ممن لا يثبت لا الاسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة قيل له فلابد أن تثبت موجودا قائما بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسما ، وان قال لا سميه باسم لا اثبات ولا نفى ، قيل له سكوتك لا ينفى الحقائق ولا واسطة بين النفى والاثبات ، فإما أن يكون حقا ثابتا موجودا وإما أن يكون باطلا معدوما

وأيضا فان كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم وان عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به مثل أن يقول رب العالمين أو القديم الازلى أو الموجود بنفسه ونحو ذلك وحينئذ فقد أثبت حيا موجودا قائما بنفسه وأثبته فاعلا ، وأنت لا تعرف ما هو كذلك الا الجسم ، وان قدر إنه جاحد له ، قيل له فهذا الوجود مشهود ، فان كان قديما أزليا موجودا بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلى موجود بنفسه ، وهو ما فررت منه ، وان كان مخلوقا مصنوعا فله خالق خلقه ولا بد أن يكون قديما أزليا . فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الازلى على كل تقدير ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع

وهنا قد نبهنا على ذلك وانه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفى الجسم ، فانه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلا بهذه الحجة وكذلك من جعل عمدته نفى التركيب

ومن تدبر ما ذكروه فى كتبهم تبين له انهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلاهم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه مالا يجوز عليه ، اذ كان اثباته هو اثبات حدوث الجسم ولم يقيموا على ذلك دليلا . والنفى اعتمدوا

فيه على ذلك وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلا على نفى كونه جسما فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلا وتناقضوا .

وهذا مما يبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة فليس معه علم لا عقلى ولا سمعى لا سيما فى هذا المطلوب الأعظم لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت ، وتنفى ما تنفى ، بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية ، وليس فيها علم أصلا ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه .

ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة فى الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم كما فعل القاضى أبو بكر فى هداية المسترشدين وغيره فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبى ﷺ بالمدينة وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم إن الله فقير وان يده مغلولة ، وغير ذلك ، ولم يقل النبى ﷺ قط إنهم يجسمون ولا ان فى التوراة تجسيما ولا عابهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة ، فبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل وإنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه عباده وإن أهلها من جنس الذين قالوا (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقد بينا فى غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازى من أن طريقة الوجوب والإمكان من أعظم الطرق وبينا فسادها وإنها لا تفيد علماً وإنهم لم يقيموا دليلا على إثبات واجب الوجود ، وإن طريقة الكمال أشرف منها ، وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً وهو قد اعترف فى آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما وجدها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن .

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا وهو أخذها

من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، لكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدرته وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر فى المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

ثم إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون ، فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى فى أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهى قولهم إلى جحد الخالق وإن أثبتوه قالوا إنه لا يتكلم ولا نادى أحداً ولا ناجاه ، وعمدتهم فى نفى ذاته على نفى الجسم وفى نفى كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحله الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل ، فحقيقة قولهم تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هى كلامه الذى بعثه به ، فإذا لم يكن متكلماً لم تكن رسالة ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ومن لم يقل إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته لم يقل إنه يتكلم .

والنفاة منهم من يقول الكلام صفة فعل بمعنى أنه مخلوق بائن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكل طائفة مصيبة فى إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب والرب يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال إنه صفة فعل كلها إنمـــا تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته ، وهذا حق ، وأدلة من قال إنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته ، وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق أو قال إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهؤلاء فى الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ولا أثبتوا له كلاما ، ولهذا يقولون ما لا يعقل ، هذا يقول إنه معنى واحد قام بالذات . وهذا يقول حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته ، وهذا يقول مخلوق بائن عنه .

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم ما فى قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا غير هذه الأقوال الثلاثة ، حاروا وتوقفوا وقالوا نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقا أو بحرف وصوت، أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئا من هذا ، ومعلوم أن الهدى فى هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ومعرفة ما جاء به الرسول وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم ، لاسيما والقلوب تطلب معرفة الحق فى هذه بالفطرة ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها .

وهؤلاء يذكرون هذا الوقف فى عقائدهم وفيما صنفوه فى أصول الدين . كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام قد صنفوا فى أصول الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا فى مسئلة القرآن وهل هو مخلوق أو قديم أو هو الحروف والأصوات ، أو معنى قائم بالذات ، نهوا عن هذه الأقوال وقالوا الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم إن القرآن كلام الله ويمسك عن هذه الأقوال ، وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة فى العلم والهدى والدين . وهم من أحرص الناس على معرفة الحق فى ذلك وغيره لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة . قول المعتزلة والكلابية والسالمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفى كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولا غير هذه ، فرضوا بالجهل البسيط وكان أحب إليهم من الجهل المركب .

وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم وهو الاستدلال على حدوث الأجسام وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر . وهذا ينفى عن الواجب أن يكون جسما بهذه الطريقة ، وذلك نفى عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالا بها وبغيرها قد عرفوا فسادها كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والله سبحانه قد أخبر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا، والله سبحانه يجزى الإنسان بجنس عمله، فالجزاء من جنس العمل، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه، فان كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلى فى عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به، ومن قال عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه، ومن قال إنهم جهال أظهر الله جهله ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى إنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم فى قوله (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وطلب فرعون إهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب كقوله (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) وقال (أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) اهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأذله غاية الاذلال وأعجزه عن الكلام النافع، فلم يبين حجة، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبي ﷺ سماه أبا جهل وهو كما سماه رسول الله ﷺ أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه فى الدنيا والآخرة.

والذين قالوا عن الرسول إنه أبتر، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره، عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى (إن شانئك هو الأبتر) فلا يوجد من شانىء الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته، قيل لأبى بكر ابن عياش أن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة فقال من جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم.

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون فى جحده وقالوا إنه ليس فوق السموات، وإن الله لم يكلم موسى تكليما كما قال فرعون (يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات

فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكان فرعون جاحداً للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال (أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) قال تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) وقال تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين).

ومحمد ﷺ لما عرج به إلى ربه، وفرض عليه الصلوات الخمس، ذكر أنه رجع إلى موسى وأن موسى قال له ارجع إلى ربك فسله التخفيف على أمتك كما تواتر هذا فى أحاديث المعراج، فموسى صدق محمداً فى أن ربه فوق، وفرعون كذب موسى فى أن ربه فوق فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون.

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار، وهى مما اعتمد عليه أبو الحسن الأشعرى فى كتابه فى الإبانة وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية على أن الله فوق العالم وقال فى أوله:

فإن قال قائل قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية والخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون.

قيل له: قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ولما خالف قوله مجانبون، فإنه الإمام الكامل، والرئيس الفاضل الذى أبان الله به الحق، وأوضح به المناهج وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم، وعلى جميع أئمة المسلمين، وذكر جملة الاعتقاد والكلام على

علو الله على العرش وعلى الرؤية ومسألة القرآن ونحو ذلك وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها لا يعتمدون فى ذلك على ماجاء به الرسول ، إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الإثبات لا النفى ، لكن يعتمدون فى ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ويعارضون بذلك ماجاء به الرسول ، وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر فى ذلك ما يرجع إليه لا من سمع ولا عقل . فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب فى ذلك على زعمهم بخلاف غير هذا فانهم معترفون بأن الرسول ذكر فى القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب وعلى صدق الرسول ، وقد يقولون أيضا انه أخبر بالمعاد لكن نفوا الصفات لما رأوا ان ماذكروه من النفى لم يذكره الرسول فلم يخبر به ولا ذكر دليلا عقليا عليه ، بل انما ذكر الاثبات وليس هو فى نفس الامر حقا ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض

فلما نسبوا ماجاء به الرسول إلى انه ليس فيه لادليل سمعى ولا عقلى ولا خبر يبين الحق ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بجنس ذنوبهم فكان مايقولونه فى هذا الباب خارجا عن العقل والسمع ، مع دعواهم انه من العقليات البرهانية ، فاذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية من جنس شبهات أهل السفسطة والالحاد الذين يقدحون فى العقليات والسمعيات ، وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وانما يظن من يعظمهم ويتبعهم انهم أحكموا العقليات ، فاذا حقق الامر وجدهم كما قال أهل النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وكما قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور)

فلما كان حقيقة قولهم ان القرآن والحديث ليس فيه فى هذا الباب دليل

سمعي ولا عقلي ، سلبهم الله في هـذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهـــذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

وقد قيل إن أول من عرف إنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون هو الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم إني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً ، ثم نزل فذبحه وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصري وغيره وهذا الجعد إليه ينسب مروان ابن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة ، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم .

ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم وهو حقيقة قول فرعون إنكار الصانع وإنكار عبادته ، وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكانوا خيارهم وأقربهم الى الإسلام الرافضة وظهر بسببهم الرفض والالحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان العـــالية ونحوهم متشيعين ، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم قال وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهـــذا سمي حينئذ بأمير المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم ويقول لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولي المقتدر قال هذا صبي لا تصح ولايته فسمى بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهـذا الاسم لكن هؤلاء

كانوا فى الباطن ملاحدة زنادقة منافقين وكان نسبهم باطلا كدينهم بخلاف الأموى والعبـــاسى ، فإن كلاهما نسبه صحيح ، وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس فى أواخر المائة الرابعة وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام والطهارة والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بنى عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن شادى وخطب بها لبنى العباس فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدى المنافقين المرتدين عن دين الاسلام مائتى سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة ، وبالعكس البدع والالحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة .

فلما ظهر فى الشام ومصر والجزيرة الالحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالاسلام وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والالحاد والفجور سلط عليهم الكفار قال تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل

فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) .

وكان بعض المشايخ يقول هولاكو ملك الترك التتار الذى قهر الخليفة بالعراق وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً يقال قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحاب دار الملك حينئذ كان بعض الشيوخ يقول هو للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبنى إسرائيل .

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الالحاد والنفاق والبدع حتى إنه صنف الرازى كتاباً فى عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر سماه السر المكتوم فى السحر ومخاطبة النجوم ، ويقال أنه صنفه لام السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازى به اتصال قوى حتى إنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه الرسالة العلائية فى الاختيارات السماوية .

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التى علمها النبى ﷺ المسلمين كما قال جابر فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم اللهم إن كنت تعلم إن هذا الأمر ، وتسميه باسمه ، خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر

شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به .

وأهل النجوم لهم اختيارات إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلا أخذ طالعاً سعيداً فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتباً فى الرد عليهم وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذبا وكم يأمرون باختيار فيكون شراً .

والرازى صنف الاختيارات لهذا الملك وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك كما ذكر فى السر المكتوم فى عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائها مثل ما يدعو الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن إنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ، فذكر إنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا فى نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ويقرلون لهم إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصى ، ولكن الشياطين هى التى تأمر بذلك ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة وإنما هى شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق نسب مثل هذا الملك ونحوه ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الالحاد والبدع سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار ، فأبادوا هذا الملك وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله به فى كتابه حيث يقول (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم إنه الحق) أى أن القرآن حق وقال سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دولة بنى أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الاسباب التى أوجبت إدبارها ، وفى آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان ، قد قيل ان أصله من ترمذ وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية وقد قتل فى بعض الحروب ، وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله

من علماء الحجاز والشام والعراق ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام فى الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع إن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلق عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولى الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم فى آخر عمره وكتب إلى بغداد وهو بالثغر بطرسوس التى ببلد سيس وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها رابط بها الامام أحمد رضى الله عنه والسرى السقطى وغيرهما وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضا صالح بن أحمد بن حنبل ، ولهذا ذكرت فى كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيما .

فكتب من الثغر إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : القرآن مخلوق فلم يجبه أحد ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد . وبقى اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فأرسلوهما إليه فمات قبل أن يصلا إليه ، ثم أوصى إلى أخيه أبى اسحق وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين وبقى أحمد فى الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه . وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتحنوا الناس فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء ، وعزلوه من الولايات ، ولم يقبلوا شهادته وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه .

وكتب قاضيهم أحمد بن أبى داود على ستارة الكعبة ليس كمثله شىء وهو العزيز الحكيم ، لم يكتب (وهو السميع البصير) .

ثم ولى الواثق واشتد الأمر إلى أن ولى المتوكل فرفع المحنة وظهرت حينئذ السنة وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه حتى قال عبد الله بن المبارك إنا لنحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة * إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له بماذا يعرف ربنا قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، قيل له بحد ؟ قال بحد . وكذلك قال أحمد بن حنبل واسحاق بن ابراهيم بن راهويه وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهم من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه كما كان فرعون يفعل فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : (ما علمت لكم من إله غيرى) ويقول لموسى (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) ويقول (أنا ربكم الأعلى) وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أو يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ويكون هو المعبود المطاع ، فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين وإنكار عبادته وإنكار كلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلى الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ، ماثم رب وعبد وخالق ومخلوق بل هو عندهم فرقان .

ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، يعيبون على نوح وعلى ابراهيم الخليل وغيرهما ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات وجميع الأصنام ، ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وإن الله نفسه هو العابد وهو المعبود وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره .

وقد ضـــل فى هذا جماعة ولهم معرفة بالـكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك كابن سبعين والصدر القونوى تلميذ ابن عربى والبلياني والتلمساني وهو من حذاقهم علماً ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثنى الثقة أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين . فلما قرأه رآه يخالف القرآن قال فقلت له هذا الـكلام يخالف القرآن ، فقال القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا ، وكان يقول ثبت عندنا فى الـكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثنى من كان معه ومع آخر نظير له فمر على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه هذا أيضا هو ذات الله ؟ ! فقال وهل ثم شيء خارج عنها ، نعم الجميع فى ذاته .

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون ، لـكن فرعون ما كان يخالف أحداً فينافقه فلم يثبت الخالق وإن كان فى الباطن مقراً به . وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق ، لـكن حب العلو فى الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنـكار كما قال (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق وإن الخالق هو المخلوق ، فإن كان قولهم هو قول فرعون لـكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد، وهؤلاء إما جهال ضلال وإما منافقون مبطنون الالحاد والجحود ، ويوافقون المسلمين فى الظاهر .

وحدثنى الشيخ عبد السيد الذى كان قاضى اليهود ثم أسلم وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاما أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسى يطلب منه المعرفة والعـــلم ، قال فدعانى إلى هذا المذهب فقلت له قولـكم يشبه قول فرعون قال ونحن على قول فرعون ، فقلت

لعبد السيد واعترف لك بهذا قال نعم ، وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرنى بهذا المذهب فقلت له هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون فحدثنى بهذا فقلت له ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج إلى بينة .

قال عبد السيد فقلت له لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون فقال ولم قلت لأن موسى أغرق فرعون فانقطع واحتج عليه بالظهور الكونى ، فقلت لعبد السيد وكان هذا قبل أن يسلم نفعتك اليهودية ، يهودى خير من فرعونى .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه وهم يحسبون أنه حق وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء لا يفهمون حقيقة قولهم بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون فى حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض وابراهيم بن أدهم وأبى سليمان الدارانى والسرى السقطى والجنيد بن محمد وسهل بن عبدالله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ويقولون مايقول ابن عربى ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وإن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وإن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يأتى خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة يخرجون أقوال الفلاسفة والجهمية فى قالب الكشف ، وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال فى نفس النبى ليس هو ملكا يأتى من السماء ، والنبى عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء فى زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذى يأخذ منه الخيال فهو يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول .

وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص قال : ولما كان

فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز فى العرف الناموسى لذلك قال أنا ربكم الأعلى ، أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم ، قال ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا قال فصح قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان فرعون عين الحق .

وحدثنى الثقة الذى كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد ابن عبد الله ﷺ قال وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له وقالوا هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر قال فقلت له محمد بن عبد الله أيضــا مظهر من المظاهر فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه ، قال فقالوا لى محمد نبغضه فانه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به ، قال فتناقضوا فى مذهبهم الباطل وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق ، قال لى وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله فإنها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقا ، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء وقد صنف كتابا سماه فك الأزرار عن أعناق الأسرار ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس وأنه قال له ما معناه إنكم قد غلبتمونى وقهرتمونى ونحو هذا ، لكن جرت لى قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإنى تجليت له فقلت أنا الله لا إله إلا أنا ، فسجد لى فتعجبت كيف سجد لى ، قال هذا الشيخ فقلت له ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصـــده مارأى فى الوجود اثنين ، وما رأى إلا واحداً ، فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذى سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربي نوحا أول رسول بعث الى أهل الارض، وهو الذى جعل الله ذريته هم الباقين وأنجاه ومن معه فى السفينة ، وأهلك سائر أهل الارض لما كذبوه فلبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الاصنام وانهم ماعبدوا الا الله وان خطاياهم خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الانبياء ويمدح الكفار كما ذكر مثل ذلك فى قصة نوح وابراهيم وموسى وهرون وغيرهم ، ومدح عباد العجل وتنقص هرون وافترى على موسى فقال وكان موسى أعلم بالامر من هرون لانه علم ماعبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد الا اياه ، وماقضى الله بشىء الاوقع ، فكان عتب موسى أخاه هرون لما وقع الامر فى انكاره وعدم اتساعه فان العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء ، فذكر عن موسى انه عتب على هرون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وانه لم يسع ذلك فلم ينكره فان العارف من يرى الحق فى كل شىء بل يراه عين كل شىء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهرون وعلى الله وعلى عباد العجل ، فان الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل انكاراً أعظم من انكار هرون وانه أخذ بلحية هرون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفة(١) قال تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى قالهم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ، قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم واله موسى فنسى أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم انما فتنتم به ، وان ربكم الرحمن ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرح عليه

(١) لعلها زائدة

عا كفين حتى يرجع الينا موسى ، قال ياهارون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى ؟ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى

قلت لبعض هؤلاء هذا الكلام الذى ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه ؟ فقال لا بل يخالفه ، قلت فاختر لنفسك إما القرآن وإما كلام ابن عربى ، وكذلك قال عن نوح قال لو أن نوحا جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه أى ذكر لهم فدعاهم جهارا ثم دعاهم اسرارا (إلى أن قال) ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ماعدم من البداية فيدعى إلى الغاية ادعوا إلى الله فهذا عين المكر على بصيرة فنبه أن الامر كله لله فأجابوه مكرا كما دعاهم فجاء المحمدى وعلم أن الدعوة إلى الله ماهى من حيث هويته وانما هى من حيث أسماؤه فقال (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم فعرفنا ان العالم كان تحت حيطة اسم الهى أوجب عليهم أن يكونوا متقين فقالوا فى مكرهم (لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) فانهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ماتركوا من هؤلاء فإن للحق فى كل معبود وجها يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، كما قال فى المحمديين (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا اياه وبالوالدين احسانا) أى حكم فالعارف يعرف من عبد وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وان التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود

وهو دائما يحرف القرآن عن مواضعه كما قال فى هذه القصة مما خطاياهم فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهى الحيرة فأدخلوا نارا فى عين الماء فى المحمديين (واذا البحار سجرت) سجرت التنور أوقدته فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد ، وقوله (وقضى ربك أن لاتعبدوا الا إياه) بمعنى أمر واجب وفرض وفى القراءة الأخرى ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لاتعبدوا الا إياه

وما قدره فهو كائن فجعل معناها كل معبود هو الله وإن أحداً ما عبد غير الله قط وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه وعلى دينه وعلى أهل الأرض فإن الله فى غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله بل يعبدون الشيطان كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) وقال تعالى عن يوسف إنه قال (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال تعالى (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) وقال تعالى عن الخليل (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) .

فهو سبحانه يقول فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهؤلاء الملحدون يقولون ما عبدنا غير الله فى كل معبود .

وقال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من

الخاسرين (إلى قوله) إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) .

قال أبو قلابة هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفترون كما قال الإمام أحمد بن حنبل إنما يقود قولهم إلى فرية على الله وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول إنه يحل فيه وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق ، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان ثم اتحد أحدهما بالآخر كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا إنما يقال في شيء معين ، وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده .

وهم من أعظم الناس تناقضا فإنهم يقولون ما ثم غير ولا سوى ويقول السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله ثم يقولون هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا ، فإذا كان ما ثم غير ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب ومن الذي ليس بمحجوب وعما حجب ، فقد أثبتوا أربعة أشياء قوم محجوبون وقوم ليسوا بمحجوبين وأمرا انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك ، فأين هذا من قولهم ما ثم اثنان ولا وجودان كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وبنته ، قال نعم الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم فقيل لهم فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غيرهم ، فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين وعندهم ما ثم غير ، وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين فإنه يقال الوجود واحد كما يقال الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة أي يعنى واحد كلى ، وهذا الكلى لا يكون كليا إلا في الذهن لا في الخارج فظنوا هذا الكلى ثابتا في الخارج ثم ظنوه هو الله .

وليس في الخارج كلى مع كونه كليا وإنما يكون كليا في الذهن . وإذا قدر

في الخارج كلي فهو جزء من المعينات وقائم بها ليس هو متميزا قائما بنفسه كحيوانية الحيوان وانسانية الانسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ويمتنع أن يكون صفة الموصوف مبدعة له ولو قدر وجودها مجردا عن العيان على رأى من أثبت المثل الافلاطونية فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ويدعى أنها قديمة أزلية مثل انسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل ، وهذا الذى جعله مجردا هو مجرد فى الذهن وليس فى الخارج كلى مجرد ، واذا قدر ثبوت كلى مجرد فى الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها كما يتناول وجود القديم وهذا لا يكون مبدعا الشىء ولا اختصاص له بصفات الكمال فلا يوصف بأنه حى عليم قدير اذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لابد أن يكون حيا عليما قديرا ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الاعيان الموجودة المخلوقة فقد ثبت وجودان ، أحدهما غير الآخر وأحدهما محدث مخلوق فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الاعيان المعينة ولكن الواحد من هؤلاء قد تغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن ان مالم يشهده قد عدم فى نفسه وفنى وليس كذلك ، فإن ما عدم وفنى شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعدوم الفانى صفة هذا الشخص ، وإلا فالموجودات فى نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علما بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهوداً للعدم ، ولكن هذه الحال يعترى كثيراً من السالكين ، يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات وقد يسمون هذا فناء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات لا أنها فى نفسها فنيت ، ومن قال فنى مالم يكن وبقى مالم يزل ، فالتحقيق إذا كان صادقا أنه فنى شهوده لما لم يكن ونفى شهوده لما لم يزل ، لا أن ما لم يكن فنى فى نفسه فإنه باق موجود ولكن يتوهمون إذا لم يشهدوه أنه قد عدم فى نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة فى الاتحاد والحلول ، فأحدهم قد يذكر الله حتى

يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق فى ذلك فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ويبقى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبى يزيد ونحوه حيث قال ما فى الجبة إلا الله وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع وتبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور : أحدها أنه يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه وهذا هو حقيقة التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله فقد فنى من قلبه التأله لغير الله وبقى فى قلبه تأله الله وحده ، وفنى من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله وبقى فى قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله ، وهذا الفناء يجامع البقاء فيخلى القلب عن عبادة غير الله مع تجلى القلب بعبادة الله وحده كما قال ﷺ لرجل قل أسلمت لله وتخليت وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفى مع الإثبات ، نفى إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده فإنه ليس فى الوجود إله الا الله ليس فيه معبود يستحق العبادة الا الله فيجب أن يكون هذا ثابتاً فى القلب فلا يكون فى القلب من يألهه القلب ويعبده الا الله وحده ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ويثبت فيه تأله الله وحده اذ كان ليس ثم إله الا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم قال تعالى عن الخليل عليه السلام (وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) .

وقال (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) .

وقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده).

قلت لبعض ما خاطبته من شيوخ هؤلاء قول الخليل إنى براء مما تعبدون ممن تبرأ الخليل ؟ أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعل الله لنا فيه وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر قال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدأ حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وهذا تصديق قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) وقال تعالى (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) وقال سبحانه (كل شيء هالك إلا وجهه) قال طائفة من السلف كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه وقد قال سبحانه (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلها آخر ، والإله هو المألوه أى المستحق لأن يؤله أى يعبد ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال بمعنى المركوب والمحمول وكان الصحابة يرتجزون فى حفر الخندق يقولون .

هذا الحمال لا حمال خيبر ٭ هذا أبر ربنا وأطهر

وإذا قيل هذا هو الإمام فهو الذى يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لإبراهيم (إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) فعهده بالإمامة لا ينال الظالم فالظالم لا يجوز أن يؤتم به فى ظلمه ولا يركن إليه كما قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النـــــار) فمن ائتم بمن لا يصلح للامامة فقد ظلم نفسه فكيف بمن جعل مع الله إلها آخر وعبد من لا يصلح للعبادة والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل وجعلوا الإلهية هى القدرة والربوبية فالإله هو القادر وهو الرب وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون * فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون فى أمور لكن إمامهم ابن عربى يقول الأعيان ثابتة فى العدم ووجود الحق فاض عليها فلهذا قال فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلها ، فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلها لها حيث كانوا مألوهين ومعنى مألوهين عنده مربوبين وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة فى العدم ، وفى كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى ، فتعالى الله عما يقـــــول الظالمون علواً كبيراً .

والتحقيق أن الله خالق كل شىء والمعدوم ليس بشىء فى الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به فيكون شيئاً فى العلم والذكر والكتاب لا فى الخارج كما قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه فهو الذى خلق ، خلق الإنسان من علق وهو الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ، ولو قدر أن الإله بمعنى الرب فهو الذى جعل الرب مربوباً فيكون على هذا هو الذى جعل المألوه مألوها والمربوب لم يجعله رباً بل ربوبيته صفة وهو الذى خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله ربا ولم يبغ رباً سوى الله ولم يتخذ ربا سواه كما قال تعالى (قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء) وقال تعالى :

(أفغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض) وقال (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وهو أيضاً فى نفسه هو الاله الحق لا إله غيره فإذا عبده الانسان فقد وحده ولم يجعل معه إلها آخر ولا اتخذ إلها غيره قال تعالى (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) وقال تعالى (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) و(قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين)

فالمحبوب ليس بإله فى نفسه لكن عابده اتخذه إلها وجعله إلها وسماه إلها وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره كما أن الجاهل إذا اتخذ إماما ومفتيا وقاضيا كان ذلك باطلا فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتى ولا يقضى ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلها يعبد ويدعى ، فإنه لا يخلق ولا يرزق وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد .

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعى أو يسمع ولكن لا يستجيب له فإن غير الله لا يستقل بفعل شىء البتة وقد قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فغير الله لا مالك لشىء ولا شريك فى شىء ولا هو معاون للرب فى شىء بل قد يكون له شفاعة إذا كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة فلا يصلح من سواه لأن يكون إلها معبودا كما لا يصلح أن يكون خالقا رازقا لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

(فصل) وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به

الرسول فإن الرسول بعث بالبينات والهدى بين الأدلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذى لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون إنه لم يفد الناس علما بخبره ولا بدلالته وإنما خاطب خطاباً جمهوريا ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً وباطلا ، وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به لكن كذبا للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علما ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر عنه فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به ، والمتكلمون الذين يقولون إنهم لا يخبرون إلا بصدق ولكن يسلكون فى العقليات غير طريقهم مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية فكيف بهؤلاء الملاحدة المغترين ، ولهذا لا يعتنون بالقرآن ولا تفسيره ولا بالحديث وكلام السلف ، وإن تعلموا من ذلك شيأ فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقادهم موجبه فى الباطن .

وهذا بخلاف طوائف المتكلمين فإنهم يعظمون القرآن فى الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع .

ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسى منجما لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية فهذه عنده هى الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئا خطيبا لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا يا فلان عن قليل يرى هـــذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعى والرياضى والإلهى ، ثم يرضيه فيقول والعربية أيضا ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها فاذا أعرض عن الأصل كان اهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار .

(فصل) أول التفرق والابتداع فى الإسلام بعد مقتل سيدنا عثمان وافتراق المسلمين ، فلما اتفق على ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا لا حكم إلا لله ، وفارقوا جماعة المسلمين فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب وقالوا كلنا قتله فقاتلهم على ، وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب أتباعه لكن خرجوا عن السنة والجماعة فهم لا يرون اتباع السنة التى يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالما فلم ينقادوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده بل قالوا إن عثمان وعليا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فكفروا المسلمين بهذا وبغيره وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبنى على مقدمتين باطلتين (احداهما) إن هذا يخالف القرآن والثانية إن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئا أو مذنبا معتقداً للوجوب والتحريم .

وبإزائهم الشيعة غلوا فى الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شىء وأوجبوا الرجوع إليهم فى جميع ما جاءت به الرسل فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة بل على قول من ظنوه معصوما ، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له ، فكانوا أضل من الخوارج فان أولئك يرجعون الى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون الى شىء بل الى معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصح الحديث وحديث الشيعة من أكذب الحديث ، ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لانقتل إلا تحت راية إمام معصوم

والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ولهذا وصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا فى البحرين وهم من أكفر الخلق ومثل قرامطة المغرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع ، أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للاسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا فى مواضع .

والمقصود أن النبي ﷺ قال إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله ، فحض على كتاب الله ثم قال : وعترتى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، ثلاثا ، فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون إليهم فانتحلت الخوارج كتاب الله وانتحلت الشيعة أهل البيت وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا السنة التى أمر القرآن باتباعها وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبى وقاص فيهم هذه الآية (ومايضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) ٢٧ البقرة ، وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ولا رسوخ فى العلم ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن ، وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جدا قد بسطت فى مواضع .

﴿ فصل ﴾ ثم حدث فى آخر عصر الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتكلم فى حكم الله الشرعى أمره ونهيه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ، ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهى مسائل الأسماء والأحكام وسموا محكمة لخوضهم فى التحكيم بالباطل وكان الرجل إذا قال لا حكم إلا لله قالوا هو محكم أى خائض فى حكم الله فخاض أولئك فى شرع الله بالباطل .

وأما القدرية فخاضوا فى قدره بالباطل وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين : حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهى

والوعد والوعيد واتباع ما يحبه الله ويرضاه وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ففرقوا بين الكتاب والسنة وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وكذلك القدرية فصاروا حزبين حزبا يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه أو ينفي بعضه ، وحزبا يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر ، الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه وكذلك ما ذكر انه يحبه وذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك وبين الايمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليما ، وأنكروا أن يكون خالقا لكل شيء وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنكروا أن يكون الله فعالا لما يشاء .

وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس واعتقدوا إنه لا يمكن الايمان بأمرة ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله وإنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلا ، كما أن القدرية المجبرة قالوا لا يمكن أن يجعل عالما قادراً إلا بتسفهه وتجويره .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته ، أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقا ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره بل يجوزون عبـــادة غيره كما يجوزون عبادته ويقولون (لو شاء الله ما أشركنا) الآية ١٤٨ الأنعام وهؤلاء منتهى توحيدهم توحيد المشركين وهو

توحيد الربوبية فاما توحيد الالهية المتضمن الأمر والنهى ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه ، فهم ينكرونه ولهذا هم أكثر اتباعا لأهوائهم وأكثر شركا وتجويراً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام وان العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين :

وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازى صنف فيها مصنفا ، وابن عربى وابن سبعين وأمثالهما يصرحون بجواز عبادتها وبالإنكار على من أنكر ذلك وهم متناقضون فى ذلك .

فالقدرية أصلهم انه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته إذ لو كان قادراً لفعل غير ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر ، وقالوا يثبت حكمته كما يثبت حكمه لأن نفى ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه فانه معذور إذا لم يفعله فلا يلام عليه .

وقال المجبرة بل قدرته ثابتة بلا حكمة ولا يجوز أن يفعل لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل وليس فى الأفعال ما هو حسن ينبغى الأمر به ، وقبيح ينبغى النهى عنه ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شىء وينهى عن كل شىء .

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية وأنكر النبوات مع أنه مضطر الى أن يأمر بشىء وينهى عن شىء فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيصا لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع فيستحق عذاب الدنيا والآخرة .

وأما من كان منهم مقراً بالنبوة فأنكر الشرع فى الباطن وقال العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة فصار منافقا يظهر خلاف ما يبطن

ويقول الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون باطنية كما سموا الملاحدة باطنية ، فان كلاهما يبطن خلاف ما يظهر يبطون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهى .

فمنتهى الجهمية المجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً وإما منافقون فيبطنون الشرك ولهذا يظنون بالله ظن السوء وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه كما قال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) وهم يعقلون بقوله لا يسئل عما يفعل وبأنه يفعل ما يشاء ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب كثر فى عبادهم وعلمائهم من صار مع المشركين وأهل الكتاب وارتد عن الإسلام إما باطناً وظاهراً وإما باطناً وقال إنه مع الحقيقة ومع المشيئة الالهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسل عما يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة وموالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول فى دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول .

فتارة يأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور وان الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين قد عصوا ولما ظهر أن مع المشركن وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال المسمين برجال الغيب وإن لهم خوارق يقتضى أنهم أولياء الله صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب حزب يكذبون بوجود هؤلاء ولكن عاينهم الناس وثبت ذلك عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه هؤلاء إذ رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم ، وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم فى الباطن طريقا إلى الله غير طريقة الأنبياء ، وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجا عن دائرة الرسول فقالوا يكون الرسول هو ممداً للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه والذين قبلهم يجوزون لاتباع دين غير دينه وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الاقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ثم تبين بعد ذلك ان هؤلاء من أتباع الشياطين وان رجال الغيب هم الجن وان الذين مع الكفار شياطين وان من وافقهم من الانس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الانس اعداء الانبياء كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وأصله قول الجهمية الذين يسوون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ثم أنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار

وحضر عندى بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الاسلام وحدثني بفصول كثيرة فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول فهب ان المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا وكان فى بغداد بضعة عشر بغيا فالجيش الكفار المشركون الذين جاؤا كانوا شراً من هؤلاء فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً فأخذ أولئك المشركون عشرات ألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم وردوهم عن الاسلام إلى الكفر وأظهروا الشرك وعبادة الاصنام ودين النصارى ، وتعظيم الصليب ، حتى بقى المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصى ، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى بهذا فتبين له وقال لا والله ، وأخبرنى عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الاسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة فى الباطن وتعذبهم ان لم يرتدوا

فقلت كان هذا لضعف ايمانهم وتوحيدهم ، والمادة التى يشهدونها من جهة الرسول ، والا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين بل انهم رجال من رجال الغيب الانسي وكلهم الله بتصريف الامر

فبينت لهم ان رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ومن ظن أنهم انس فمن جهله وغلطه فان الانس يؤنسون أى يشهدون ويرون ، انما يحتجب الانسى أحيانا لا يكون دائما محتجبا عن أبصار الانس بخلاف الجن فانهم كما قال الله (انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ٢٧ الأعراف وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران ان هولاكو ملك المشركين لما دخل بغداد رأى ابن السكران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق آخذا بفرس هولاكو قال فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين فقلت ياهذا أو كلمة نحو هذا فقال تأمر بأمر أو قال له هل تفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر فقال نعم بأمر ، فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وظن أن مايؤمر به الشيوخ فى قلوبهم هو من الله وان من قال حدثنى قلبى عن ربى فان الله هو يناجيه ، ومن قال أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت هو كذلك ، وهذا أضل من ادعى الاستغناء عن الانبياء وانه لا يحتاج إلى واسطتهم

وجواب هذا أن يقال له بأمر من تؤمر فان قال بأمر الله قيل بأمر الله الذى بعث به رسوله وأنزل به القرآن أم بأمر وقع فى قلبك ، فان قال بالاول ظهر كذبه فانه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتى بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ويجعل الدار(١) تعبد بها الاوثان ويضرب فيها بالنواقيس ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصارى وأمثال ذلك فان هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ وهو من جنس مشركى العرب الذين قاتلوه يوم أحد ، وأولئك عصاة من عصاة أمته وان كان فيهم منافقون كثيرون فالمنافقون يبطنون نفاقهم .

---

(١) أي دار الاسلام

وإن قال بأمر وقع فى قلبي لم يكذب لكن يقال من أين لك أن هذا رحمانى ولم لا يكون الشيطان هو الذى أمرك بهذا ، وقد علمت أن مايقع فى قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان ، فإن رجع إلى توحيد الربوبية وإن الجميع بمشيئته قيل له فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ، ولا ريب إنه بالأمر الكونى القدرى ، فجميع الخلق داخلون تحته لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن وهو مستوجب لعذاب الله فى الدنيا والآخرة وهو عابد لغير الله ، متبع لهواه ، وهو ممن قال الله فيه (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وممن قال فيهم الشيطان (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال الله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) فكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به كما لا يأمر بالفحشاء ، فإن هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسما لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة فى الفحشاء .

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك الشيخ عثمان شيخ دير ناعس يأتيه خفير الفرنج النصارى راكباً أسداً ويخلو به ويناجيه ويقول يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم فيعذره عثمان وأتباعه فى ذلك ويرون إن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل كما عذر ابن السكران وأمثاله لخفراء المشركين التتار .

والجواب لهذا كالجواب لذلك يقال له أوكلك الله تعالى بهذا ؟ ! أنزل

على لسان نبيه ، الذين أمر أن يوالى المسلمين وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت فهل هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم ، فان قال هذا ، ظهر كذبه ، وإن قال بل هو أمر ألقى فى قلبي لم يكذب وقيل له فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله ولكنه من الأمر الذى هو كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا .

ومن هؤلاء من يظن أن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببنى آدم المعقبات .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل إلى الثقلين الإنس والجن ولم يرسل إلى الملائكة فكل إنسى أو جنى خرج عن الايمان به فهو عدو لله لا ولى لله بخلاف الملائكة .

ثم يقال له الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصى ولا على قتـــال المسلمين وإنما يعاونوهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم فان ذلك ليس بمعصية ، فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار وكان والده يقال له محمد الخالدى نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد وهم يقولون إنه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثنى الثقة عنه إنه كان يقول الأنبياء ضيعوا الطريق ، ولعمرى لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شيـــاطين الانس والجن ، وهؤلاء المشايخ الذين يحبون المسلمين ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوا هم وهم فى أصل ضلالة وهو أنهم

جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن كما قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذى أنزله وهو الكتاب والسنة وعن الروح الذى أوحاه الله إلى نبيه الذى جعله الله نورا يهدى به من يشاء من عباده وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة وهؤلاء كلهم يشتركون فى هذا المذهب فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه ويرضاه فتبقى جميع الأمور عندهم سواء ، وإنما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعا له وإما موافقة له ومحبة وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الايمان ما يعرفون به المعروف وينكرون به المنكر فى هذا الموضع .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ إنه قال من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان وفى رواية لمسلم من جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل وميت الأحياء الذين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا وفى حديث حذيفة الذى فى صحيح مسلم أن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الحصير عودا عودا فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تبقى القلوب على قلبين ، قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض وقلب أسود مرباد لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه .

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا بالأمر والنهى منتهاهم اتباع أهوائهم (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)

لاسيما اذا كانت حقيقتهم هى قول الجهمية المجبرة فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت فى المشيئة ولم يميز بعضها عن بعض ، فان الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبغضه ويسخطه فان الله يحب المعروف ويبغض المنكر ، فاذا لم يفرقوا بين هذا وهذا نكت فى قلوبهم نكت سرد فسود قلوبهم فيكون المعروف مايهوونه ويحبونه ويجدونه ويذوقونه ، ويكون المنكر مايهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا (عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) ولهذا يوجد فى هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التى تفر من الرماة ومن الاسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا

وكان الشيخ ابراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والاحمدية ياخنازير ياأبناء الخنازير ماأرى لله ورسوله عندكم رائحة (بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفا منشرة) كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وبسط هذا له موضع آخر

والمقصود هنا ان قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لماجاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا فى زمن السلف بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم فانه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الايمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الامور له موضع آخر

والمقصود هنا ان القدرية المجبرة من جنس المشركين كما ان النافية من جنس المجوس ، وان المجبرة ماعندهم سوى القدرة والمشيئة فى نفس الامر ، والنافية تنفى القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم انها تثبت الحكمة والعدل ، وفى الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة كما قد بسط فى مواضع .

وأولئك يتعلقون بقوله (لا يسأل عما يفعل) والله يفعل مايشاء ، وهذا ذكره الله إثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل مايشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئا بل هو قادر على فعل مايشاء بخلاف المخلوق الذى يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ولهذا قال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح لا يقولن أحدكم اللهم اغفرلى ان شئت ، اللهم ارحمنى ان شئت ، فان الله لا مكره له ولكن ليعزم المسئلة وذلك انه انما يقال افعل كذا ان شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل مالا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه ، والله تعالى لا مكره له فلا يفعل الا ما يشاء

فقوله تعالى (ان الله يفعل مايشاء ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على مايشاء وهذا ردلقول القدرية النفاة الذين يقولون انه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء الا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادرا عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعا ولا عاصيا

فهذه الايات التى تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التى يحتج بها النفاة التى تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة وانه لم يخلق الخلق عبثا ونحو ذلك يدل على فساد قول المجبرة ، وليس فى هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل وهذا هو الذى نهى عنه النبي ﷺ فى الحديث الذى فى المسند وغيره وبعضه فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ انه خرج على أصحابه وهم يتمارون فى القدر وهذا يقول ألم يقل الله كذا ، وهذا يقول ألم يقل الله كذا ، فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، ولهذا قال أحمد فى بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض إنا قد نهينا عن هذا

فمن دفع نصوصا يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج هو به وصار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض

وهـذا حال أهل الاهواء ، هم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو مايجمع تلك الاقوال فصاروا كما قال عن أهل الكتاب (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) ١٤ المائدة

فاذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذلم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق الا ماوافقوا فيه الرسول وهو ماتمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به * وأما ماابتدعوه فكله ضلالة كما قال ﷺ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة (١) وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون تلك هى الاصول العقلية كالقدرية الجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام فى الاصول وهو الذى يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع ، فالمعتزلة يجعلون العقليات هى الخبريات والامريات جميعا ، فالواجبات الشرعية لكن يقولون أيضا ان الشرع أوجبها ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه

وكذلك ماابتدعوه فى الخبريات كاثبات حدوث العالم بطريقة الاعراض واستلزامها للاجسام وهم ينفون الصفات والقـدر ، ويسمون ذلك التوحيد والعدل

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفيا منهم ، فإنهم ينفون الاسماء مع الصفات وهم رؤس الجبرة ، والاشعرية وافقتهم فى الجبر لكن نازعوهم نزاعا لطيفا فى اثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الاصول العقلية وهى العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه ومايجوز عليه من الافعال هى أعظم العلوم وأشرفها وانهم برزوا بها على الصحابة وان النبى لم يعلمها الصحابة إما لكونه وكلها إلى استنباط الامة وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن العرباض بن ساريه

بالجهاد وإما لكونه قال لهم فى ذلك مالم يبلغوه ولم يشغلهم بالادلة لاشتغالهم بالجهاد

وهذه هى الاصول العقلية التى يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى وأبى الوليد الباجى تبعا للقاضى أبى بكر وأمثاله وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله كما ناقض الاشعرى وأمثاله أبا على وأبا القاسم

وكل الاصول العقلية التى ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة فى العقل والشرع وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين ويقدمونها على الأصول الشرعية ، فانهم فى ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ويفضلونها على العبادات الشرعية والعبادات الشرعية هى التى معهم من الإسلام وتلك كلها باطلة وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفى ابتداء الفقيه ونهاية الفقيه ابتداء المولة وكذلك صاحب منازل السائرين يذكر فى كل باب ثلاث درجات فالأولى وهى أهونها عندهم توافق الشرع فى الظاهر والثانية قد توافق الشرع وقد لاتوافق ، والثالثة فى الأغلب تخالف لاسيما فى التوحيد والفناء والرجاء ونحو ذلك وهذا الذى ابتدعوه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض وهذا كثير والله أعلم .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين ؟

﴿ تمت ولله الحمد ﴾